حدث ذات جدار

مجموعة قصصيّة

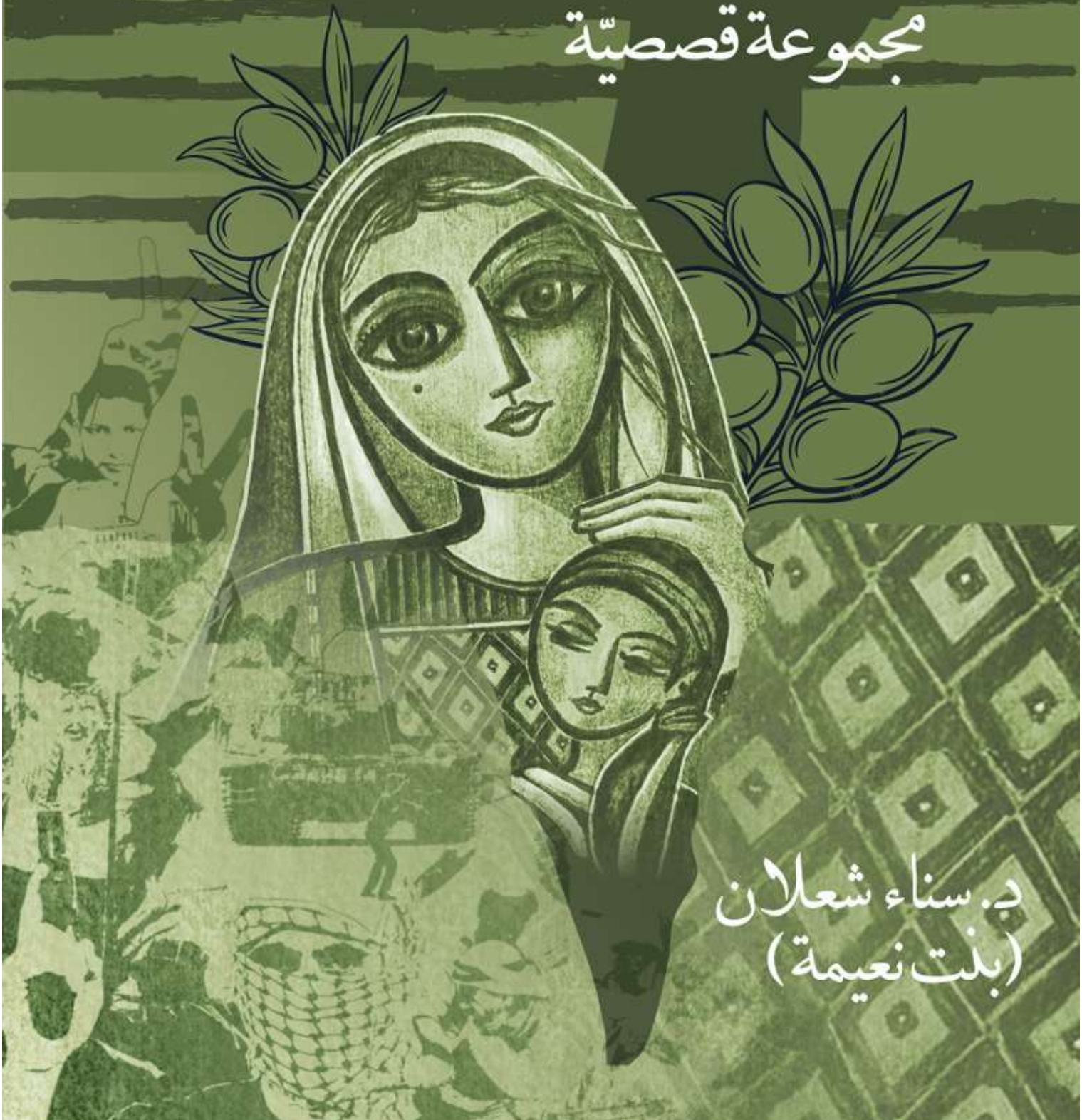

د. سناء شعلان
(بنت نعيمة)

بسم الله الرحمن الرحيم

شناسنامه:

حدث ذات جدار

مجموعة قصصيّة

د. سناء شعلان
(بنت نعيمة)

فهرست

إهداء	٧
قريباً من الجدار	**٩**
إضاءة على ظلام	١٠
وبكى الجدار	١١
المقبرة	١٥
حالة أمومة	١٧
الصّديق السّري	٢١
شمس ومطر على جدار واحد	٢٦
عندما لا يأتي العيد	٣٤
وادي الصّراخ	٤٠
الغروب لا يأتي سرّاً	٤٥
سلالة النّوْر	٤٩
ما قاله الجدار	٥٣
السّجان مسجون أيضاً	٥٣
قبر الرمثاويّ لا يُضام	٥٣
لا قصة حبّ للجدار العازل	٥٤
بوّابة واحدة لا تكفي	٥٥
لا قانون ضدّ الأقدام العائدة	٥٦
الخيل الأصيلة تعود دائماً إلى أهلها	٥٦
الموتى لا يرحلون	٥٧
طائر الفينيق حقيقة لا أسطورة	٥٨

المجانين ضدّ الجنون ٥٨
الموت يساوي بين الأشياء ٥٩
ثورة العصافير خارج التّاريخ ٦٠
على الجدار أن يرحل في النّهاية ٦٠

بعيداً عن الجدار ٦٣
البوصلة والأظافر وأفول المطر ٦٤
خُرّافيّة أبو عرب ٧٠

من واجب الجدار الفاصل أن يخجل من نفسه،
وأن يبكي -ولو سرّاً- احتجاجاً على طغيانه واشمئزازاً من وجوده!

إهداء

إلى مَنْ لا تهزمهم الأسوار مهما علتْ وتجبّرتْ.

إلى أمّي (نعيمة المشايخ) القامة السّامقة الطّاهرة التي لا تُهزم ولا تتكسر.

قريباً من الجدار

إضاءة على ظلام

الجدار العازل أو الجدار الفاصل هو عبارة عن حاجز طويل بناه الكيان الصّهيونيّ في الضّفة الغربيّة من فلسطين المحتلّة قرب الخطّ الأخضر؛ لمنع دخول الفلسطينيين سكّان الضّفة الغربيّة إلى الكيان الصّهيونيّ أو إلى المستدمرات[1] الصّهيونيّة القريبة من الخط الأخضر. يتشكّل هذا الحاجز من سياجات وطرق دوريّات، أو من أسوار إسمنتيّة بدل السّياجات في المناطق المأهولة بكثافة مثل منطقة المثلّث أو منطقة القدس.

بدأ بناء الجدار في عام ٢٠٠٢ م في ظلّ انتفاضة الأقصى، وفي نهاية عام ٢٠٠٦م بلغ طوله ٤٠٢ كم، ويمرّ في مسار متعرّج يحيط بمعظم أراضي الضّفة الغربيّة، وفي أماكن معينة، مثل مدينة قلقيلية، يشكّل معازل، أيّ مدينة أو مجموعة بلدات محاطة تقريباً بالجدار من جهاتها جميعها .

وبينما تعارض السّلطة الوطنيّة الفلسطينيّة والمنظّمات الفلسطينيّة بناء الجدار، وتُطلق عليه اسم «جدار الفصل العنصريّ»، أو «جدار الضّم والتّوسّع العنصريّ»، تعبيراً عمّا تراه فيه من محاولة صهيونيّة لإعاقة حياة السّكان الفلسطينيين أو ضمّ أراضٍ من الضّفة الغربية إلى الكيان الصّهيونيّ، يصمّم الكيان الصّهيونيّ على الاستمرار في التّوسّع في بناء هذا الجدار!!!

١- المستعمرة تحمل معنى الإعمار، أمّا ما يبنيه الكيان الصّهيونيّ على أرض فلسطين ليأوي فيه المهاجرين الصّهاينة المرتزقة هو ليس أكثر من مستدمرة تدمّر الأرض والشّعب الفلسطينيّ بعد أن تسرق الأرض الفلسطينيّة من أهلها بقوة القهر والظّلم، ثم بعد ذلك تفسد كلّ شيء .إذن فهي مستدمرة لا مستعمرة.

وبكى الجدار

وُلـدا فـي يـوم واحـد، كان يومـاً فلسـطينيّاً حزينـاً يعـجّ بالخـوف والظّلـم والقسـوة والحرمـان، كان يومـاً ماطـراً مـن مُـزن السّـماء ومـن عيـون المآقـي، وكان العـمّ نـور محمـولاً حينئـذٍ علـى محفّـة خشـبيّة قديمـة ملفوفـاً بالعلـم الفلسـطيني، ومشـيّعاً بترنيمـة الخلود: »اللـه أكبـر«.

فـي طريقـه إلـى مثـواه الأخيـر فـي بطـن ثـرى أمّـه فلسـطين، كانـت الزّغاريـد فـي انتظارهمـا لا ترحيبـاً بهمـا، بـل وداعـاً لعمّهـا البطـل المغوار. كانـا فتـى وفتـاة، مـن لحظاتهمـا الأولـى فـي الحيـاة حملا الاسـم نفسـه، ففـي خـلاف عاجـل بيـن والديهمـا المتنازعيـن علـى وهـب اسـم شـقيقهما الشّـهيد لأحـد المولوديـن الجديديـن، قـرّرا أن يكـون اسـم كلّ منهمـا نـوراً نـزولاً عنـد اقتـراح أمّهمـا الجـدّة التـي أرادت أن تحسـم الخـلاف بحـلّ توفيقـي، مـرضٍ لابنيهـا فـي آن.

لـم يفترقـا أبـداً منـذ وُلـدا لا فـي نهـارٍ ولا فـي ليـل، يـأكلان ويشـربان ويسـتيقظان ويناميـان فـي لحظـة واحـدة كتوأميـن متحابّيـن، كلّ مـن رآهمـا ظـنّ أنّهمـا وليـدا رحـم واحـد، قليـل مـن كان يعـرف أنّهمـا أبنـاء عـمّ، وأقـلّ منهـم مـن يسـتطيعون أن يجزمـوا إن كانـا صبييـن أم فتاتيـن أم صبـي، وفتـاة؛ لأنّ الجـدّة اعتـادت علـى الرّغـم مـن احتجـاج أميهمـا علـى أن تلبسـهما ملابـس متشـابه أكانـت بـزّات ولاديّـة أم أثـواب بناتيّـة وفـق المتيسّـر عندهـا مـن خوالـف ملابـس باقـي الحفـدة، وكان يسـعدها أن تراهمـا يـكادان يطيـران فرحـاً بملابسـهما المتشـابه الموروثـة الرّثـة الفاقـدة للونهـا الأصلـي، الزّاهـي بفعـل التّقـادم وطـوال الاسـتهلاك.

كلما صاح أحدهما باسم نور، طارا كلاهما إليه مبتسمين بخبث طفولي. مشاكس يصمّم على أن يكونا شريكين في كلّ شيء حتى في تلبية صوت الدّاعي، ما كانا ليقبلا بأن يفترقا أبداً مهما كانت الأسباب، ولكنّ المرض وحده هو من فرّق بينهما؛ الجدّة أخذت حفيدتها نور إلى الطّبيب في البلدة المجاورة لقريتهم، يومها وعدت حفيدها الباكي نور بأن تعود بحفيدتها نور في ظرف ساعات قليلة بعد أن تعرضها على الطّبيب المختصّ، ولكنّها لم تبرّ بوعدها مكرهة لأنّ مرض نور ألزمها البقاء في مستشفى البلدة لأيام أُخر.

أضرب نور عن الطّعام في انتظار عودة ابنة عمّه نور، ولولا تهديد والده له بعدم عودة نور إن لم يأكل لقضى نحبه جوعاً، ومعدته الصّغيرة وجسده الهزيل أضعف من أن يحتملا الجوع لساعات فضلاً عن أيام.

طال انتظار نور لعودة ابنة عمّه نور، وما عاد أحد قادراً على أن يجيب عن سؤاله الحائر المفجّع: «متى تعود نور إلى البيت؟» فالكلّ كان في انشغال وهمّ بسبب ذلك الجدار الإسمنتيّ الأصمّ الذي زُرع حول قريتهم على غفلة بين ليلة وضحاها بخرسانة جاهزة تثبّت في الأرض تثبيتاً سريعاً في ساعات قليلة، وتغوّل حتى وصل إلى عنان السّماء حاجباً خلفه الشّمس وجدّته ونوراً، بصعوبة استطاعت سنواته السّبع أن تستوعب أنّ جدّته ونوراً مسجونتان خلف الجدار الصّلد العاتي، وأنّه من الصّعب إن لم يكن من المستحيل أن يُسمح لهما بعبور بوابة الجدار للعودة إلى قريتهما، ولكنّه أبداً لم يسلّم إلى هذا الحكم الجائر الذي يحرمه من أثيرته نور.

وعـلا الجـدار أكثـر وأكثـر، ومضـت الأيـام الطّـوال ببـطء قاتـل، والجـدّة ونـور مسـجونتان خلـف الجـدار، وهـولا ينفـكّ يذهـب كلّ صبـاح إلـى الجـدار يلازمـه بالحـدّ الـذي يُسـمح لـه بـه الجنـود الصّهاينـة الذيـن لا يمكـن أن يفهمـوا معنـى أن ينتظـر أثيرتـه نـوراً دون فتـور أو كلـل أو ابتعاد. كثيـراً مـا كان يصـرخ باسـم نور؛ لعلّهـا تكـون قريبـة مـن الجـدار، فتـردّ عليـه، وعندمـا كان يعييـه صمتهـا كان يضـرب الجـدار بحجـر، ويولّـي هاربـاً مـن الجنـود الـذي يصلونـه بتوعداتهـم وسـبابهم البـذيء الخليـط مـن العربيـة الرّكيكـة والعبريّـة والكلمـات الانفعاليّـة المضطربـة اللّفـظ والمعنـى، ثـم يهـرب بعيـداً ليعـود مـن جديـد فـي أقـرب وقـت ليسـتأنف نـداءه لنـور دون مجيـب أو رحيـم بحالـه.

كثيـراً مـا حملـه أبـوه بحـزم حنـون بعيـداً عـن الجـدار، وهـو يعـضّ علـى حزنـه وانتظـاره لأمّـه المسـجونة خلـف الجـدار، منكـوداً بعجـزه وقلّـة حيلتـه، متسـلّحاً بجملـة واحـدة لا تتغيّـر، وهي: »سـتعود جدّتـك ونـور فـي القريـب العاجـل إنّ شـاء الله«. فـإن ألـحّ نورعلـى معرفـة وقـت عودتهمـا بالتّحديـد انخـرط أبـوه فـي بـكاء صامـت مخنـوق يبّلـل لحيتـه، فيكـفّ نـور عـن إلحاحـه رحمـة منـه بأبيـه الباكـي المحـزون.

عـرف نـور أنّ جدتـه وابنـة عمّـه نـوراً تعيشـان فـي بيـت قريـب لهمـا فـي البلـدة خلـف الجـدار، وعلـم أنّ صحّـة نـور فـي تحسّـن، ولكنّـه لـم يسـتطع أن يفـارق أملـه فـي أن يسـمع صوتهـا يـرّد علـى ندائـه اليومـيّ مـن خلـف الجـدار، وفكّـر فـي أن يلفـت نظرهـا بإطـلاق طائرتـه الورقّيـة إلـى أعلـى الجـدار، لعلّهـا تطاولـه أو تعلـوه، فتراهـا نـور، وتعـرف أنّـه فـي أقـرب نقطـة ممكنـة منهـا، وكاد ينجـح فـي خطّتـه التـي كلّفتـه الكثيـر مـن الجهـد والخيـوط المسـتعارة مـن

أبنـاء حيّـه، لكـن الجنـود الصّهاينـة صـادروا طائرتـه فـي أوّل تحليقـة لهـا، وأعدموهـا هنـاك فـي حجـرة المراقبـة المنتصبـة فـوق بوابـة الجـدار، وهكـذا فقـد أملـه الأخيـر فـي التّواصـل مـع أثيرتـه الصّغيـرة نـور.

صمّـم علـى أن لا يفـارق الجـدار دون أن يعـود بنـوره، واعتكـف إلى جانبـه لأيام شـتويّة بـاردة، فشـلت محـاولات الأسـرة كلّهـا فـي إعادتـه إلـى البيـت، وكان يمضـي وقتـه هاربـاً مـن ناحيـة إلـى ناحيـة كـي لا تتلقّفـه أيـدي المصّممين علـى إعادتـه إلـى بيتـه ضنّـاً بـه علـى هـذا العـذاب الموصـول فـي انتظـار ابنـة عمّـه نـور التـي لـن تعـود مهمـا كابـد مـن عنـاء البـرد والعـراء والجـوع والضّنك والانتظـار المعـذّب.

وحـده الجـدار مـن كان يعـرف أيـن يختبـئ نـور مـن مطارديـه مـن أسـرته حتـى يقفلـوا راجعيـن خائبيـن مـن حيـث أتـوا دون أن يعـودوا بـه علـى كـره منـه، وكـم كاد يتمنّـى مـن أعماقـه الإسـمنتيّة الصّلـدة القاسـية لـو يسـتطيع أن يملـك نطقـاً ليوصـل سـلام نـور المشـتاق إلـى الصّغيـرة نـور التـي تنتظـره علـى الجهـة الأخـرى منـه رافضـة أن تعـود مـع جدتهـا إلـى بيـت الأقـارب هربـاً مـن هـذه اللّيلـة البـاردة.

وعندمـا كان يغلبـه ضعفـه كان يحـاول دون جـدوى أن يصـدّ بمنكبيـه تلـك السّـحب السّـوداء التـي تنـذر بليلـة ماطرة بـاردة، لكـنّ السّـحابة تطاولـت عليه، واسـتهانت بمنكبيـه العملاقيـن، وغشـيت المـكان ضـدّ رغبتـه، وهيمنـت علـى السّـماء مزبـدة مرعـدة، فارتـدّ الجـدار إلـى نفسـه مخزيّـاً خجـلاً مـن قسـوته علـى قلبـي طفليـن لا يريـدان مـن الحيـاة إلاّ أن يلتقيـا.

المطـر ألجـم المـكان بالصّمـت والعجـز، وأغرقـه فـي دفعـات ضخمـة مـن

شآبيبه، وما انجلى إلاّ في الصّباح وقد غسل كلّ شيء بطهره البلّوريّ البارد، وهناك كان الجدار يبكي بحرقة على طفلين صغيرين كلّ منهما يحمل اسم نور، وهو يغشاهما بظلّه اللّئيم الأسود القابض وكلّ منهما ميّت مسجّى على ناحية مختلفة من جسده الصّلد البارد.

حزن الجدار على الطّفلين المتغالين حزناً وحسرة لأنّه حرم أحدهما من الآخر بجريمة أنّهما فلسطينيين، لم يستطع الجدار أن يمدّ كفيه ليلتقط هذين الجسدين الهزيلين الصّغيرين كي لا ينجسهما بخطيئته تجاههما، وفي لحظة غضب شعواء منه شرع يهتزّ في مكانه، خالعاً كلّ ما عليه من غرف ومكامن ومراقب وجنود وبوّابات، مستسلماً للدّك والتّهاوي تكفيراً عن ذنبه الأسود، ومنداحاً في دموعه الإسمنتيّة وفي أحزانه وندمه على قتل الصّغيرين العاشقين بتجبرٍ وبطش دون رحمة.

المقبرة

لا تستطيع الحاجّة رشديّة أن تُحصي أحزانها الفلسطينيّة؛ فأحزان الفلسطينيّ لا تُحصى مادامت لعنة الاحتلال الصّهيونيّ تنهش ماضيه وحاضره ومستقبله، كذلك لا تستطيع أن تُحصي عدد من فقدتْ من أحبّة من أقارب وجيران وأصدقاء بين قتل وسجن ونفي وتعذيب ومرض وتشويه واختطاف، ونكاية بعدوّها الغاشم فهي تصمّم على أن لا تذكر علناً عدد من قدّمت من أبنائها شهداء في قوافل الحرّية، وإن كان قلبها يحصيهم في كلّ لحظة بحرقة وتوجّد وفقد، فهم ثلاثة من زينة الشّباب، كانوا مثل سنابل فرعاء نديّة شهيّة عندما قصفهم العدّو الصّهيونيّ

الواحد تلو الآخر دون أن يرأف بشبابهم المُرتجى أو بآمال أمّهم التي أفنت سنين شبابهم عاكفة على يتمهم وفقرهم.

لم يرها أحد في يوم تبكي أحداً من أبنائها، وكانت تصمّم على أن يناديها أهل الحي باسم أمّ الشهداء، وتتيه فخراً كلما روت بالماء وبدموع العينين زيتونات قبورهم، وداعبتها بانكسار يتعالى على زفراتها اللاهثة المفطورة على ألم عملاق.

أمّا اليوم فلم تخجل من أن تنتحب، وأن تبذل دموعها سخيّة مدرارة وهي تعانق زيتونات بستانها، وتتشبّث بجذع أكبرها لعلّها تعصمها من أيدي جنود الصّهاينة الذين داهموا القريّة من طلوع الشّمس، وعاثوا تقتيلاً في أشجارها قبل أن يجرّفوا أرضها، ويلقوا بأهلها جميعاً خارجها حفاة مذعورين بحجة تملّك أراضيهم من أجل بناء الجدار العازل. ولكنّها على الرّغم من جبروت رفضها الأبيّ للرّحيل وجدت نفسها شعثاء غبراء دون غطاء رأسها الأبيض ودون بيتها أو بستانها أو زيتوناتها الوفيرة بل دون قريتها كاملة، ففي ساعات قليلة كانت معظم أراضي القرية مصادرة، وكانت الأراضي الزّراعية جرداء مغتصبة مجرّفة من أشجارها ومن فرحها، فغدت القرية دون سكّانها بعد أن شطر مخطّط الجدار الفاصل القرية إلى نصفين؛ نصف صغير يسجن خلفه حشداً عظيماً من أهلها، والآخر يعزل أمامه مقبرة القرية الباقي الوحيد منها بعد أن غدت كلّها خلا المقبرة خلف الجدار العازل ذي الأسلاك الشّائكة والكلاب والبنادق والجنود الصّهاينة.

وحدها الحاجّة رشديّة من بقيت في القرية المختزلة في المقبرة

بعد هذا التّقسيم الجائر السّريع الذي نهشها، إذ ظلّت متشبّثة بأرضها، ورفضت الرّحيل لتكون شهيدة جديدة تزفّ إلى المقبرة وإن كانت لا تزال على قيد الحياة! أمضت أياماً قصيرة في مثواها الجديد موزّعة بين أبنائها الأرواح الثّاوين في القبور، وبين شجراتها الزّيتونات المرسلات قتلى على أرض المقبرة بعد أن رحّلتهم إلى جانبها، وفي جنباتها ذلك الحقد المرجل على ذلك الجدار الغاشم الذي بات ينمو بتوحّش أمام عينيها ليحرمها من قريتها وأهلها وتاريخها المديد.

المقبرة هي آخر من تبقّى لها من عالمها المتواري قهراً خلف الجدار، وهي هنا وحيدة لا تملك سوى شجاعتها وإصرارها على البقاء، وفأسها آخر من رافقها في دربها نحو زيتوناتها، تحدّق في فأسها العتيد المخلوع جانباً، تتفرّس مقبضه الخشبّي الموشّى بمزق جلد يديها، تتأبّطه، وتحكم ربط غطاء رأسها، وتحزّمه بأطراف ثوبها، وتخطو أوّل خطواتها نحو الجدار، خطواتها ثابتة وسريعة تقصد أن تتهال بفأسها على الجدار تحطيماً وتهميشاً، تقترب أكثر من جنود العدّو الذين يهرعون هروباً نحو البعيد من وجه امرأة عجوز تحمل فأسها وغضبها وانتقامها المستعر، وخلفها أجساد تجرّ أكفانها، وتحمل فؤوساً مهدّدة بها وهي تكاد تتقضّ على الجدار، وفي الأفق تلوح المقبرة بقبور مفتوحة قد غادرها الشّهداء إكراماً لدموع الحاجة رشديّة بغية مساعدتها في تحطيم الجدار العازل!

حالة أمومة

لم تكن تعلم بزرع الجدار العازل على أرض قريتها في فلسطين، وهي

تقبع في غرفتها الصّغيرة المعزولة في مستشفى إحدى العواصم العربيّة بعد أن حصلت على منحة علاج من إحدى المنظّمات الطّبيّة الخيريّة الدّوليّة بعد طول انتظار لتُعالج من مرض السّرطان الخبيث الذي غزا ثديها الأيسر منذ أن وضعت ابنها الوحيد هاشم، ومنعها من أن ترضعه ولو لمرّة واحدة في حياتها، ثم ألجأه إلى حضن عمّاته الثّلاثة العوانس اللّواتي يشاركنها السّكنى في البيت نفسه، كما يقاسمنها أعباء الحياة القاسيّة في مواجهة عدوّ اعتاد جنوده على مهاجمة بيتهم في دوريات تفتيشيّة مداهمة مكرورة منذ أن اعتقلوا زوجها في مواجهات احتجاجيّة في الشّهر الثّاني من حملها.

وكذلك زوجها لم يعرف شيئاً عن مرضها أو عن سفرها خارج الوطن برفقة والدها من أجل العلاج، فقد أخفت أمر مرضها عن زوجها بناء على رغبة شقيقاته اللّواتي آثرن التّكتّم على هذا الخبر كي لا يزدن من عذابات معتقله، وبوائق أحزانه وآلامه.

كانت تحلم بأن تعود إلى بيتها بعد طول غياب كي تضمّ صغيرها إلى صدرها الذي فقد ثديه الأيسر قرباناً للمرض، فتشمّه، وتغيب معه في احتضان طويل دافئ يجفّف برد حرمانها منه، وما كانت تعلم أنّها ستجد وطنها قد سُرق من جديد، وأن بيتها قد أصبح محض ذكرى سراييّة بائدة ، وأنّ شقيقات زوجها قد توزّعن على بيوت الأقارب مهجّرات بعد أن صادر العدّو بيتهم وأرضهم، وحوّلها إلى مساحة جرداء تحتضن جداراً إسمنتياً يحوّل الوطن إلى سرادق ضيقة ومصائد فئران وسجن انفراديّ.

تلاشى حلمها الوردّي بأن تحتضن طفلها الصّغير، بعد أن تحوّل إلى

كابوس تعيشه بتفاصيله القبيحة الموحشة، وها هي قد أصبحت لاجئة في وطنها، وعلقت مع أبيها في بيت حجرة يسكنه أفراد عشرة من أقاربها، ومن جديد بات عليها أن تحارب سرطان الألم والوحدة والنّبذ.

حاولت دون جدوى أن تعود إلى أسرتها خلف الجدار، واشتدّت محاولاتها إلحاحاً عندما علمت أنّ زوجها قد خرج من المعتقل، واكترى بيتاً صغيراً في أطراف قريته، وجمع شمل أسرته من جديد، وجعل شغله الشّاغل أن يجد طريقة تسمح لزوجته بالعودة إلى بيتها وأسرتها وابنها، ولكنّه كان يخفق المرّة تلو الأخرى في تحقيق مراده، ويعود إلى سريره الحزين مخذولاً محروماً.

وكانت الفرصة الوحيدة للّقاء هي عبر الحصول على تصريح زيارة حصلت عليه بشقّ الأنفس، ولو كان هناك سفر للشّمس لكان أيسر من الحصول عليه، وأخيراً استطاعت أن تضمّ طفلها إلى صدرها تحت عيون الرّقباء غير الوامقين من الجنود الصّهاينة، بدا لها أنّه بالغ الإعياء على الرّغم من تلك الحمرة الورائيّة التي تعلو وجنتيه، جفل منها عندما أمطرته بقبلها الهوجاء الملوّعة، ولكّنه استسلم سريعاً إلى رائحة أمومتها الفيّاضة التي تزكم أنفه وهي تدسّه في حضنها بانفعال واضطراب.

عيناه موئل لحزن عتيق، ورائحته تعجّ برائحة عشرات النّساء اللّواتي تناوبن على إرضاعه بعد أن فقد أمّه كي يحافظن على حياته من الهلاك، فأصبحت له عشيرة من الأمهات المرضعات والأخوة بالرّضاعة، ضمّته أكثر إلى صدرها؛ لعلّها تكسوه برائحتها الحانية، فتنزع عنه رائحة الأمهات المرضعات الكُثر اللّواتي يشاركنها أمومتها بوحيدها الصّغير.

سريعاً ما انتهى وقت زيارة التّصريح، وتلقّف زوجها ابنهما منها، وضمّه إليه بشجاعة يحاول أن يصطنعها على كره وإصرار، ولكنّه يخفق في إتقانها، طبعتْ قبلة سريعة على جبين ابنها، وهمستْ في أذنه: »سأعود في القريب. صدّقني«. ثم غادرت المكان، وهي تخلع قدميها المرة تلو الأخرى من الأرض التي يصعب عليها أن تغادرها، ومزقة من قلبها تضطرب بعجزٍ بين يدي زوجها الذي يسير نحو البعيد مهدّماً ضعيفاً، وكأنّه شاخ بمقدار قرن أو اثنين في أسابيع قليلة.

مضى يومان وهي تحلم بأن تضمّ طفلها إلى صدرها من جديد، وهي أسيرة عينيه الزّائغتين في فراغ مجهول، عندما رفض العدوّ أن يعطيها تصريحاً للزّيارة ولو لدقائق قليلة، هزأت من جبنه المتجبّر على طفل صغير وأمّ مريضة وحيدة، وقررت أن ترى ابنها أوافق العدوّ على ذلك أم أبى.

في المساء كانت قد عبرت الجدار الفاصل رغم أنوف الجنود الصّهاينة المدجّجين بالسّلاح والخوف والحذر، ولكنّها لم تكن تسعى حيّة على قدميها عندما عبرته، بل كانت جثة هامدة مخرّقة بالرّصاص، وموصومة بجريمة التّخريب، ركلها الضّابط المناوب على الحراسة الليليّة بحذائه العسكريّ الغليظ، وأمر جنوده بأن يبعدوها عن البوّابة، ففعلوا، وكوّموها إلى جانب الجدار وكفّ يدها متخشّبة على ثديها الأيمن الذي كانت تحلم بأن ترضع ابنها منه ولو لمرّة واحدة في حياتها المهدورة على بوابة الجدار العازل.

الصّديق السّري

لـم يحـظَ يومـاً بـأيّ صديـقٍ بالمعنـى الدّقيـق لهـذه الكلمـة، ولعـلّ هـذه الشّـفة الأرنوبيّـة هـي السّـبب فـي هـذا الأمر؛لـم يسـتطيع أبـداً أن يديـر حـواراً غيـر مختـزلٍ مـع أيّ أحـد خـارج بيتـه كـي يختـزل لحظـات تحديـق العيـون الفضوليّـة فـي شـفته الأرنوبيّـة التـي وُلـد بهـا، البعـض يقـول إنّهـا عيـب خلقـيّ مـردّه إلـى أنّ أمّـه قـد أنجبتـه وهـي كبيـرة فـي السّـن قـد تجـاوز عمرهـا الخمسـين سـنة بعامين، والبعـض يرجّـح أنّ هـذه الشّـفة هـي مـن مضاعفـات القنابـل المسـيلة للدّمـوع التـي يغـرق العـدو الصّهيونـيّ الشّـوارع والأحيـاء بهـا مـرّة تلـو الأخـرى.

لا يعـرف سـبب علّتـه ونقصـه، ولكـن مـا يعنيـه مـن كلّ مـا سـمعه حـول شـفّته أنّـه يسـتطيع أن يتخلّـص منهـا بعمليـة تجميليّـة سـهلة فـي أيّ عاصمـة عربيّـة خـارج الوطـن حيـث طـبّ التّجميـل متقـدّم ومتيسّـر، ولكـن هـذا حلـم مؤجّـل بسـبب ذلـك الجـدار العـازل الـذي خنـق قريتـه، وعزلـه وقومـه عـن الدّنيـا وأهلهـا فـي جغرافيـة ضيّقـة تناضـل لتظـلّ علـى قيـد الحيـاة فـي أصعـب معطيـات الاسـتمرار.

هـذه الشّـفة جعلتـه يصـادق النّـاي الخشـبيّ الـذي صنعـه جـدّه لـه منـذ زمـن طويـل، هـذا النّـاي هـو الصّديـق الوحيـد الـذي يهبـه وجهـه كامـلاً غيـر متـدارٍ خلـف الصّمـتً كـي يشـيح بشـفته عـن أيّ نظـرات فضوليّـة قـد تطـرح عليـه الأسـئلة المزعجـة الخانقـة عـن سـبب هـذا التّشـوية الخلقـيّ المزعـج.

لـولا هـذا الجـدار العـازل لسـتطاع أن يجـري العمليّـة المنشـودة منـذ أشـهر طويلـة، ولكنّـه مصلـوب علـى عـذاب يتلخّـص فـي أنّ مـن يخـرج مـن بيتـه

خلف الجدار الفاصل قد لا يستطيع العودة إليه، إذن عليه أن يظلّ في انتظار أمله المجنّح المحلّق نحو البعيد، وفي انتظار ذلك يهمس بأحلامه الزّاهية وآماله الملحاحة إلى نايه الحبيب الذي يحوّل دواخل نفسه المكلومة إلى موسيقى عذبة قادرة على أن تتحدّى الجدار، وأن تحلّق بفرح نحو البعيد حيث الانعتاق والحرّية دون أن تطالها يد خانقة، أو يصادرها ظلّ جدار عال لا يُتخطّى.

جزء من الجدار العازل لا يزال غير إسمنتي، بل هو أسلاك شائكة، وحراسة مشدّدة في انتظار دوره كي يُزرع إسمنتاً وصلباً وحديداً مثل سائر الجدار، ومن أقصى امتداده الشّرقي، حيث يمتدّ في حقول الحمضيات بعد أن اكتسح الأشجار، ونزعها ليلقي بها بعيداً يكشف عن تلك المستعمرة الصّهيونيّة التي تربض على أرضٍ سلبتها وجوه غريبة شوهاء قادمة من البعيد لينتصر الموت والبغي والظّلم والأسلحة على الجغرافيا والتّاريخ في معادلة سياسيّة استبداديّة ساخرة.

في البداية اعتاد على أن يتلصّص على المستدمرة من باب الشّهوة في كسر إسار الجدار المضروب حول كلّ شيء، فيما بعد غلبه الاستسلام لتلك اللّعبة الفضوليّة الجهنّميّة المسمّاة مقارنة، أركان اللّعبة متوفّرة كاملة في هذه اللّحظة وفي اللّحظات جميعها، فعالمه المقهور المظلوم في مواجهة ذلك العالم المرفّة الجميل هناك في المستدمرة، هنا تحاصره وجوه الجنود والكلاب والسّلاح والموت والأرض المحروقة والمعتقلات والتّعذيب والقتل والخراب واليتم والخوف والفقر والحرمان وحظر التّجول والشّوارع الضّيقة والبيوت القديمة والخدمات المعدومة والغلاء والمعاناة،

وهناك في المستدمرة على مسافة يقطعها بربع ساعة من السّير الهوينى يرى الرّخاء والرّفاهيّة والسّلام والأمن والغنى وأسباب السّعادة حاضرة جميعها، قليل من التّفرّس في تلك الوجوه الطّفوليّة الباسمة الرّغيدة المترعة صّحة وعافية، وهي تصهل في تلك السّاحة العشبيّة الخضراء، وتتبارى في صخب وضحك كفيلة بأن تقوده إلى صور بؤسه المقيم حيث الوجوه الكالحة في القرية، إذ لا تأتي السّعادة إليهم إلاّ مهربّة تستعجل المغادرة، ثم تولّي هاربة مع أوّل طلقة رصاص من بندقية صهيونيّة.

كم يحلم بأن يعيش في هذه العالم الجميل، ومن جديد يتساءل لماذا عليه أن يكون أسير عالمه البائس حيث ظلّ الجدار العازل؟! يكرّر السّؤال على نفسه المرّة تلوالأخرى، وتحار الإجابات، وتضلّ طريقها عنه، ويظلّ أسير هذا السّؤال الذي يقدح زناد سخطه وحقده، فيضيفه إلى جملة أسئلته ذات الأقدار المجهولة.

لم يكن يتوقّع أنّ هناك عينين ترقبانه منذ أيام طويلة، وتسعيان إلى أن تقتربا منه إلى أكبر مسافة ممكنة، ولم يتخيّل أن تسلّله لبضع خطوات إلى داخل المستدمرة سوف تجعل تلكم اليدين الصّغيرتين تقبضان عليه بعطف موزّع بين الحذر والخوف والرّغبة الشّديدة في التّواصل، كاد قلبه يطير خوفاً عندما هبطت اليدان الدّافئتان الصّغيرتان على كتفه، ولكن تلك القبضة الحنونة البعيدة عن القسوة التي ألفها وشعبه من أيادي الصّهاينة جعلته يستسلم لها، ويلزم مربضه دون أن يفكّر في الهرب.

العينان اللّتان كانتا ترقبانه واليدان اللّتان قبضتا عليه كانتا لصبّي في مثل عمره، هو صهيونيّ صغير من ذلك العالم حيث الرّفاهية والسّعادة،

إنّه من أبناء الغاشمين الظلّمة الذي سرقوا وطنه، ذلك الغريب الصّغير يعيش في نور الشّمس، أمّا هو فيعيش قسراً في ظلّ الجدار العازل، عليه أن يبتعد عنه، وأن يغادر المكان ليعود إلى أهله وبيته، وأن لا يثق فيه، ولكنّه يرى أمناً غريباً في عينيه الرّماديتين، ورجاء مخلصاً يسأله بذل أن يظلّ معه، وأن لا يهرب بعيداً عنه، في نفسه حربان، وعليه أن ينتصر لواحدة منهما ضدّ الأخرى كي يجد طريق الرّشاد؛ إمّا أن يهرب نحو البعيد، أو أن يصدّق قلبه الذي يهمس له بأن يبقى مع هذا الصّبيّ الصّهيونيّ ولو لبعض الوقت، ونفسه تهتف به أن يستسلم لهمس قلبه، وأن يقطع أجمل أوقات اللّعب معه في هذه الحديقة الجميلة التي يرتع فيها ليل نهار.

مضت أسابيع طويلة وهو يسعد بهذا الصّديق السّري الذي وهبه له القدر في لحظة تخلّ عن قسوته، لقد حظي أخيراً بصديق حقيقيّ لا يخجل من أن يحدّق في شقّته الأرنوبيّة الشّوهاء، هما من عالمين مختلفين، بل من معسكرين متحاربين، ولكن تجمعهما محبّة طفوليّة كلّها دهشة وأُنس وألفة ولا تخضع لحروب الكبار وخصوماتهم، ولا تعترف بجدران أو فواصل، يجلسان لساعات مختبئين في مربضهما بين الأشجار في حديقة المستعمرة، متواريان عن كلّ شيء خلا حديثهما العذب الحنون، يتحدّثان في كلّ شيء بلهجة خليط من العربيّة والعبريّة التي يتوافر كلّ منهما على أقدار كافية منهما، ويتمنيّان لو يستطيعان أن يجريا في المروج دون وجل أو خوف.

في لحظة تخلّ عن ضوابط عالميهما يقرران أن يجريا ويرمحا في

الحديقة، يخرجان من مكمنهما، وشطيرة كل منهما في يده، يقضم كل منهما قضمات سريعة من شطيرته، ويمضغ لقمه على عجل، ثم يستسلمان لرغبتهما الأثيرة في الرّكض واللّعب، ويعلو صوت لهاثهما المحمّل بالضّحك والسّعادة، ويطغى ضجيج لهوهما على أصوات الصّبية حولهما، دقائق تمرّ، وينتبه الموجودون إلى الفتى الفلسطينيّ الأسمر الذي يصهل في الحديقة، ويعانق الفتى الصّهيونيّ، فوضى سريعة تطغى على المكان، وخبر الصّبي الفلسطينيّ الموجود في الحديقة يطيّر في المستدمرة كما النّار في الهشيم، بنادق تصوّب نحوهما، عيون شريرة كثيرة تحاصر المكان لاقتناص الصّبي الفلسطينيّ الذي يتجمّد في مكانه مبهوتاً مرعوباً متذكّراً وصايا أمّه بعدم الاقتراب من المستدمرة، عشرات الصّور والوجوه تمرّ سريعاً دون سبب مبرّر في مخيلته البريئة، وأزيز طلقات يعلو في المكان، ثم تستقر الطّلقات جميعها في بطنه، وتتوالى أخر مسرعة إليه لتستقرّ أنّى شاءت في جسده الصّغير الغضّ، رغبة جارفة في الاستسلام للعدم تجتاحه، فيجثو مهدوماً على الأرض، وعيناه تبحثان عن أرض دون ألم في عيني صديقه الصّهيونيّ الذي يرفع عقيرته برجاء موصول للبنادق كي تكفّ عن صبّ جحيمها على جسد صديقه الفلسطينيّ، وعندما يفشل في إقناع البنادق بأن تكفّ عن إطلاق رصاصها، يلقي بنفسه على جسد صديقه، ليشاركه بتلقّي الرّصاصات الواغلة في جسديهما دون رحمة .

الصّور والوجوه جميعها تغيب عنهما، يسقطان أرضاً في مساحة صغيرة، عينا الصّبي الصّهيونيّ تجولان بوهن في عيني صديقه الفلسطينيّ بحثاً

عـن ابتسـامة مسـامحة يهبهـا لـه تكفيـراً عـن هـذه الرّصاصـات التـي اغتصبـت فرحـه وروحـه، وعينـا الصّبـي الفلسـطينيّ تهربـان نحـو الجـدار العـازل حيـث وجـه أمّـه مسـجوناً خلفـه فـي حـزن دائـم، يبتسـم لوجههـا ذي الحـزن النّبيـل الدّائـم وهـو يبـرق فـي ذاكـرة قلبـه، ثـم يمضـي نحـو البعيـد حيـث لا جـدران عازلـة أو بنـادق غـادرة أو صديـق صهيونـيّ اللّعـب منـه يعنـي المـوت.

شمس ومطر على جدار واحد

لا شـيء فـي هـذا المـكان يذكّرهـا بالشّـمس الجميلـة المشـرقة علـى الرّغـم مـن ارتفـاع حـرارة الجـوّ إلاّ وجـه ذلـك الشّـاب الفلسـطينيّ الـذي اعتـادت علـى أن تراقـب قسـماته فـي كلّ صبـاح وهـو يعبـر بوابـة الجـدار العـازل حيـث يمـرّ بالمـكان جبريّـاً ليعبـر إلـى الطّريـق السّـريع باتجـاه عملـه، منـذ وقعـت عيناهـا عليـه فـي صبـاح مشـمس شـعرت بالـدّفء الحانـي بـدل الحـرارة اللافحـة التـي كانـت تحرقهـا فـي مكانهـا، وتجعلهـا تلعـن اللّحظـة التـي جعلتهـا تتـرك هنغاريـا، وتجـري خلـف أسـاطير كاذبـة عـن أرض الميعـاد.

فـي حقيقـة الأمـر هـي كانـت تبحـث عـن فرصـة جديـدة للحيـاة والعمـل والدّراسـة بعيـداً عـن صديقهـا البلجيكـيّ الـذي خدعهـا وسـرق أموالهـا مـرّة تلـو الأخـرى، وفـي منـأى عـن زوج أمّهـا السّـكير الـذي اعتـاد علـى التّحـرّش الجنسـيّ بهـا منـذ كانـت صغيـرة.

جـاءت إلـى هنـا طلبـاً لفرصـة جديـدة فـي الحيـاة، فلـم تجـد إلاّ القهـر والخـوف والعمـل المضنـي ليـل نهـار، فـي هنغاريـا درسـت رقـص الباليـة الذي تحبّـه، ويليـق بجسـدها المرمـريّ الـذي يخـبّ خبّـاً كحصـان أسـطوريّ مجنّـح

بأردية من سحر ليجيد الرّقص بين السّحاب، ما كانت تتخيّل أبداً أن تقودها الظّروف والخيبات المتتابعة والوحدة والفشل المستمرّ والخوف من العودة إلى هنغاريا لتتطوّع لتكون مجنّدة في الجيش الصّهيونيّ لتقف على الأبواب، وتعدّ أنفاس الفلسطينيين، وتبادلهم كرهاً بكره دون أن تعرف مسوّغاً مقبولاً لذلك سوى موجبات عملها الكريه، ثم تعود إلى بيتها مساءً محطّمة، وتنزف نفسها تقيؤاً وهي تسبّ وجهها الجميل الذي يرضى بأن يعانق هذا القبح كلّه صباح مساء على تلك البوّابة اللّعينة في الجدار العازل.

أُخضعتْ لدورات تدريبيّة نفسيّة مكثّفة لتقبل بفكرة أنّ هذا الجدار يحمي شعبها الصّهيونيّ الذي تنكر في سحيق أعماقها انتسابها له، وتقنع نفسها ظاهريّاً بأنّها تقف على هذه البوابة لتخدم أمّتها، ولتقمع أولئك المتوحّشين من الفلسطينيين الذين ينخرون في أمن كيانهم الرّابض على هذه الأرض التي تشعر بأعماقها بأنّها غريبة عنها، ولا تنتمي إليها بأيّ شكل من الأشكال، ولكنّها على الرّغم من ذلك لا تزال تشعر بالقرف من نفسها كلّما وقفت ببزّتها العسكريّة تفتّش الأجساد العابرة من بوّابتها، وتشمّ جبراً رائحة الكره والضّغينة والتّحدّي في العيون الفلسطينيّة المتحفّزة لغضب قابل للاندلاع في أيّ لحظة.

كلّ شيء في هذه البوّابة يشعرها بأنّها في جهنم؛ فهي بوابّة متوحّشة تفصل بين عالمين مشتعلين، وهي حارسة عليها دون معنى لوجودها هنا بعيداً عن عاصمة الثّلج حيث وُلدت.

وحده ذلك الشّاب الفلسطينيّ هو من يشعرها بدفء مكلّل بالمطر كلّما

مـرّ بالقـرب منهـا، لا تشـمّ فيـه رائحـة حقـد أو كـره أو تحفّـز لإيذائهـا، تـرى فـي عينـه غـزلاً نـادراً لا يجيـده إلاّ مـن يملـك روحـاً مثـل روحـه التـي تقـدر علـى أن تغلـي عاطفـة وحنـوّاً حتـى فـي ليلـة ماطـرة!

هـو مـن جعـل لوجودهـا فـي هـذا المـكان معنـى وغايـة، النّهـارات التـي تبـدأ بوجهـه تغـدو رؤومـة قابلـة للامتـداد فـي الـرّوح والجسـد والكلمـة، عندمـا تـراه تفكّـر دائمـاً برقصـة باليـة مشـتركة مـع جسـده الرّجولـيّ المعجـون بشـقائه وعرقـه وسـمرته المثيـرة علـى الجليـد اللامـع الزّلق. أحيانـاً كان يفوتهـا أن تـراه فـي طابـور العابريـن فـي الصّبـاح لانشـغالها بتدقيـق أوراق المناوبيـن الصّباحييـن، ولكـي تتلافـى هـذا الحـدث غيـر السّـعيد، فقـد اعتـادت علـى أن تأتـي مبكّـرة لتدقّـق الأوراق الرّسـميّة، فيخلـو لهـا وجـه الأسـمر تتفرّسـه قـدر مـا شـاءت حتـى يغـادر نحـو البعيـد مـع زملائـه مـن العمّـال الفلسـطينيين الذيـن يعبـروا كلّ يـوم بوّابـة الحـزن نحـو الشّـقاء فـي الأراضـي المسـتدمرة كـي يلاحقـوا لقمـة العيـش المغموسـة بالخـوف والحـزن والـذّل وسـاعات لا تعـدّ ولا تُحصـى مـن الانتظـار علـى البوّابـات والمعابـر ونقـاط التّفتيـش والتّحميـل والتّفريـغ.

أصبحـت الحيـاة أجمـل بوجـوده، مـرّة تعمّـدت أن تفتّشـه بيديهـا العاشـقتين، فاحترقـت برعشـة الاشـتهاء، ولوعـة الشّـوق وهـي تتلمّـس هضـاب جسـده وسـهوله بضراعـة مـن يتبـرّك بعبـاءة ولـيّ صالـح، مسّـدت أكثـر مـن مـرّة علـى عضـلات صـدره، وكادت تلمـس خفقـات قلبـه الـذي فضـح صمتـه، وقـال لهـا قهـر تكتّمه: »أحبّـك«.

فيمـا بعـد عاهـدت نفسـها علـى عـدم الاقتـراب منـه أكثـر كـي لا تحتـرق

بجمر جسده، واكتفت بأن تكون في أقرب نقاطها منه في كلّ صباح، تيسّر له العبور مع من معه من العمال بأقل قدر من الانتظار والإزعاج، وتسعد بادخار نظراته في عميق وجدانها حيث تسكن الإيقاعات الموسيقيّة ممزوجة برقص الباليه.

كانت ترجوه بصمت أن يهمس لها بأيّ كلمة، وما كانت تحلم بأن يهديها ديواناً شعرياً لشاعر فلسطيني، قال لها إنّ اسمه محمود درويش، وإنّه يحبّه جدّاً، فكان لزاماً عليها من تلك اللّحظة أن تحبّه إكراماً لحبيبها الأسمر الجميل. تفرّست في الدّيوان على غير عجل، وكأنّها تريد أن تتعّم أناملها بمس كلّ صفحة قد يكون قد مسّها من قبلها، حدّقت طويلاً في الصّفحة الأولى حيث كتب لها بخط عربيّ بديع الانحناءات: «عندما أراك يسقط المطر في سماء روحي: مصلح الوادي».

قرأت العبارة عشرات المرّات حتى حفظت انحناءات كلّ حرف فيها، وراق لها أن تجمع مطر قلبها مع شمس وجهه كلّما التقيا في بوّابة هذا الجدار المقيت الذي باتت تتقزّز من ظلّه الرّابض على صدر الرّجل الذي تخشى أن تعترف لنفسها بأنّها تحبّه.

أشهر طويلة مرّت وهي تراقصه رقصة العشق في هذه البوّابة، وتحلم دون توقّف بنهار مشمس يتخلّله مطر مداهم يدكّ هذا الجدار ببوّاباته جميعها، ويسمح لها بأن تقترب منه لتقول له دون خوف أو وجل أو ريبة: «أحبّك».

هذا الصّباح استيقظت من نومها وهي تتمتم بجملة: «أحبّكَ». طوال الطّريق وهي في دربها إلى البوّابة في سيّارة الجيش كانت تحلم

بأصابعه تداعب نمشها الورديّ، وبشفتيه الغليظتين ترسمان قبلة على جبينها الصّغير النّاصع البهاء، المطر كان يقرع زجاج السّيارة، وأشعة الشّمس تتحدّى قطرات المطر الوليدة، وتشاغب خصلات شعرها الأحمر المجعّد، فتبتسم ابتسامة أنثويّة تعجز عن كتمانها في أعماقها، وتشرئب نحو البعيد حيث البوّابة تقترب منها، وموعد لقائها الصّباحيّ بمن تحبّ يقترب كذلك.

عندما وصلت إلى البوّابة كان المكان يضطرب بالجنود والصّخب والكلمات المتطايرة التي تشير إلى مشكلة ما، ومن خلف جموع الجنود كان تبزغ أجساد مسجّاة على الأرض وكلاب بوليسيّة شرسة تنهشها ، زملاؤها الجنود قالوا لها إنّهم عمّال فلسطينيون مخرّبون، اقتربت منهم بوجل؛ فهي تدرك معنى كلمة مخرّب المزعومة التي يتّخذها جنودهم ذريعة لممارسة موهبتهم في القتل والتّنكيل بالبشر، وجه ذلك الأسمر المدرّج بالدّم والزّبد وابتسامة هازئة بكلّ جبروت أوّل ما صفع وجهها، وأشعرها بالصّقيع اللافح المغروز في العظام والقلب، تكوّمت إلى جانبه دون أن تجرؤ على أن تدفن رأسه في حضنها ولو لمرّة واحدة في حياتها، كانت مغمورة بظلّ الجدار العازل حيث العفونة والظّلام والكآبة والظّلم، وكانت العودة إلى هنغاريا دون رجعة إلى هذا المكان هي الفكرة الوحيدة التي تملك عليها ذاتها، وتلحّ عليها قبل أن يقتلها الجدار كما قتل الرّجل الذي عشقته. **مَنْ أطفأ الشّمعة الأخيرة ؟!**

لا تجيد التّنظير السّياسيّ أو الفلسفيّ مثل معظم المناضلين الفلسطينيين، كذلك لا تستطيع أن تقرأ أو أن تكتبُ؛ فهي من مواليد القرن الماضي، ولم

تتـح لهـا فرصـة للذّهـاب إلـى الكتّـاب، فقـد كان ذلـك محرّمـاً على الفتيـات في ذلـك الوقـت وفـق أعـراف اجتماعيّـة صارمـة، وكان قصـراً علـى الذّكـور، ومـن ثـم أخذتهـا الحيـاة الزّوجيّـة المبكّـرة والأمومـة المتكـرّرة لتسـع مـرّات متتابعـة مـن متابعـة البرامـج الثقافيّـة أو تعلّـم القـراءة والكتابـة أو التفـرّغ للجلسـات الحواريّـة السّياسـيّة، ولكنّهـا تعـرف أنّ البطولـة والوطنيّـة والمقاومة الفلسـطينيّة للعـدو الصّهيونـي تكـون علـى قـدر الظّـروف والمعطيـات والملـكات.

وملكتهـا العظمـى تتمثّـل فـي أمومتهـا التـي تتّسـع لسـكان كوكـب الأرض جميعهـم، وتمتـدّ لتحتضـن الأسـرى الفلسـطينيين فـي المعتقـلات الصّهيونيّة؛ بـدأت حكايتهـا مـع أمومتهـا العملاقـة عندمـا زُجّ بابنهـا البكرعبـد المجيـد فـي المعتقـل الصّهيونـي، وحُكـم عليـه بالسّـجن مـدى الحيـاة، ثـم لحقـه أخـواه الأصغـران ليغـدو ثلاثتهـم أسـرى المعتقـل المتوحّـش، كانـت تمضـي أسـبوعها تلاحـق الجهـات المسـؤولة والصّليـب الأحمـر كـي تحصـل علـى تصريـح زيـارة لأحدهـم أو لجميعهـم، وقليـلاً مـا كانـت تحصـل عليـه دون تكـرار رفـض ومماطلـة وتنكيـد ومراوغـة لأوهـى الأسـباب، ومـن ثـم بـات مـن المسـتحيل أن تحصـل علـى تصريـح لزيـارة ابنهـا البكرعبـد المجيـد الـذي غُلّظـت العقوبـات عليـه، ومُـدّد حبسـه الانفـراديّ إلـى الأبـد، مـن ثـم حرُمـت مـن زيـارة ابنيهـا الأصغريـن بسـبب الجـدار الفاصـل الـذي قطـع الأرض بينهـا وبيـن معتقليهمـا، فتباعـدت الأرض بينهـم علـى الرّغـم مـن تقاربهـا، وأصبـح العالـم فـي فلسـطين لا يُفهـم إلاّ بمنطـق باطـن الجـدار وظاهـره.

ومـن هـذا المنطـق الظّالـم وجـدت نفسـها أمّـاً يفصلهـا جـدار إسـمنتيّ أصـمّ عـن أولادهـا المعتقليـن، كمـا يفصـل الجـدار نفسـه آلافـاً مـن الأمهـات

الفلسطينيات عن أبنائهنّ وبناتهنّ في المعتقلات. فقرّرت أن تكون إلى جانب المعتقلين الفلسطينيين ضدّ الجدار، كما صمّمت على أن تمارس أمومتها معهم، بدأت الفكرة بتجربة، ثم أصبحت التّجربة واقعها المعيش، في معتقل البلدة كان هناك ١٤٦ معتقلاً ومعتقلة، وقد بات شغلها الشّاغل أن تزورهم الواحد منهم تلو الآخر، وأن تتعرّف عليهم، وأن تكون أمّاً لهم أجمعين بدل أمّهاتهم المحرومات من الزّيارة اللّواتي لا يستطعن الوصول إليهم.

تعاطف الصّليب الأحمر مع رغبتها، وجنّد إمكاناته المحدودة من الوساطات والدّعم من أجل أن يساعدها على زيارة الأسير تلو الآخر، وكانت أمومتها عونها في هذا الأمر، كانت الشّمعة الوحيدة في حياة الكثير من المعتقلين، تحفظهم فرداً فرداً، وتسأل عن أحوالهم، وتعرف ظروفهم، وتتابع قضاياهم، وتصغي إلى شكواهم دون تذمّر أو ملل، وتحاول ما استطاعت أن تخفّف عنهم آلامهم وقهرهم حتى باتت الأم الحقيقية لكلّ منهم، وغدت زيارتها بلسم لكلّ معتقل، فغدت شمعتهم الأخيرة والوحيدة في ظلام معتقلهم القابض على أرواحهم الثّائرة، ونالت باستحقاق لقب «أم الأسرى».

كانت تتشفّع عند الله بهذه الأمومة الغامرة، وهذا العطاء الموصول كي يفكّ أسر أبنائها، وييسّر لها أمر الحج إلى بيت الله الحرام قبل أن يستردّ الله روحها الأمانة، ويختارها إلى جانبه حيث الرّحمة والعدل، وعلى غير متوقّع خرج ابنها الكبير من المعتقل، وهو المحكوم مؤبداً في صفقة تبادل للأسرى مع الصّهاينة، ونُفي إلى بيروت تنفيذاً لبنود الصّفقة حيث

سيستقرّ هناك، وكان أوّل ما عمله هو أن سعى للحصول على فرصة لكي تحجّ والدته ووالده إلى البيت الحرام، وتكّللت مساعيه الحثيثة بالنّجاح، وكانت تأشيرة السّفر وحجز مكانين في حافلة الحجّ ونقود كثيرة أوّل ما أرسل إليها من منفاه الجديد.

فرحت» أم الأسرى» بتحقّق حلمها بالحجّ لاسيما مع اقتراب موعد خروج ابنيها الآخرين من المعتقل، وأعدّت العدّة كي تتوّجه إلى بيت الله الحرام برفقة زوجها، وطوّفت لأسابيع على المعتقلين كي تودّعهم قبل سفرها، فحمّلوها بمحبتهم وبدعواتهم لها وبرسائلهم الشّفويّة لأمهاتهم وأسرهم إن تسنّى لها في خروجها من أسر الجدار أن تقابلهم أو أن تزورهم.

عندما خرجت من بوابة الجدار نحو الحرّية متّجهة إلى بيت الله الحرام، تذكّرت أمراً واحداً، وهو الرّسائل الشّفويّة التي حمّلها المعتقلون لها، كانت هذه هي المرّة الوحيدة التي تخرج فيها منذ سنوات من أرض عزلة الجدار، ولعلّها تكون المرّة الأخيرة أيضاً قبل أن ترحل عن هذه الحياة.

حدّقت طويلاً في السّماء الممتدّة في الأفق دون قيود، وتراءت أمامها قلوب أمهات الأسرى الفلسطينيين التي تتوق إلى أخبار عن أبنائهنّ المعتقلين، وضجّت في خاطرها نصوص آلاف الرّسائل الشّفويّة موشّاة بأصوات أصحابها وبمشاعرهم وباختلاج جوارهم، وقرّرت في لحظة تضحية أن لا تذهب إلى الحجّ، وأن تستثمر أيام حرّيتها خارج الجدار في تبليغ الرّسائل إلى أصحابها.

لم يكن من الصّعب عليها أن تزجر نفسها الطّامحة إلى تحقيق حلمها

في زيارة بيت الله الحرام، منحازة بذلك إلى صوت الرّحمة والأمومة في داخلها. ودّعت زوجها على تخوم الجدار وهو يقصد الحجّ وحده دونها، وهو يلوّح لها بثوبه الأبيض، ويدعو لها وله بالمغفرة.

قضت « أم الأسرى» أياماً موصولة بالتّطواف في أرض وطنها، دقّت الأبواب وفق العناوين التي تحفظها عن ظهر قلب، حتى أوصلت الرّسائل إلى أصحابها، فما تركت أمّاً إلاّ وواستها، ولا زوجة إلاّ وأسرّت لها بكلام زوجها، ولا طفلاً إلاّ وحملت له قبلات أبيه، وحفظت قسماته بعناية واقتدار كي ترسمها في مخيال والده الذي لم يره منذ زمن.

لقد قرّت نفساً بعد أن أدّت الرّسائل الأمانات إلى أهلها، وها قد أزف موعد العودة إلى منزلها، حزمت تعبها واشتياقها إلى أبنائها الأسرى، ووقفت في طابور انتظار طويل كي تعبر بوّابة الدّخول عبر الجدار العازل، وطال انتظارها كما طال بالموجودين جميعهم إمعاناً في إذلالهم والتّضييق عليهم، فانتبذت مكاناً قريباً لتريح شيخوختها الثّمانينيّة المثقلة بهموم المعتقل والمعتقلين، وطال انتباذ جسدها مكاناً قصيّاً، أمّا روحها فكانت طائراً أبيض طاهراً يحلّق نحو ربّه في مستقرّة الأخير بعيداً عن شبح الجدار العازل بعد أن حجّت بطريقتها الخاصّة، واستعدّت للقاء ربّها الحنّان المنّان.

عندما لا يأتي العيد

إذا لفظ بصعوبة موزّعة بين مخارج الحروف المشبعة بزفير الهواء، وحشرجات دفعها خارج فمه الذي يزمّه بشدّة ليخرج منه كلمة «هاها»

فهو يلفظ دون شكّ اسم ابنه هادي، لم يفكّر يوماً في أن يحاول أن يتحدّى بكمه الذي نالـه عطية مجانيّة إجباريّة صهيونيّة من انفجار مدوّ لقنبلة أفقده سمعه وهو رضيع، ولم يجرّب في يوم أن يلفظ كلمة واحدة، واكتفى بالقدر القليل من الإشارات والإيماءات التي أنتجها بفعل حاجاته الضّروريّة مثل الحاجة إلى الأكل أو الشّرب أو الرّاحة أو النّوم أو قضاء الحاجة، فهو لم يتلقَّ أيّ دروس في لغة الصّم والبكم؛ لبعد تلك المؤسّسات عن قريته، ولتعذّر الذّهاب إليها بسبب الحواجز الصّهيونيّة التي تطوّقه وقريته من كلّ مكان، ولكن منذ زفّت السّماء إليه فرحة قلبه ابنه هادي بعد زواج طال لعقد كامل من ابنة عمّه تمام، غدت الحياة في عينيه أجمل، وأصبح يملك سبباً مقدّساً كي ينطق اسمه ليل نهار، وإن كان نطقه له يخرج على شكل ترديد ممطوط مشبع بالمدّ لحرف الهاء، ولكن ما يعنيه في هذا الأمر أن يعرف ابنه هادي أنّه يناديه، أو يقصده بكلامه، وهذا حسبه في الحياة كلّها، فما الحياة عنده إلاّ ابنه هادي.

منذ أن وُلد هادي قبل تسع سنوات صار يملك سبباً للحياة، وهدفاً للامتداد، والتحق سرّاً بالكتائب المسلّحة في قريته لمواجهة الاحتلال الصّهيوني، وتلقينه الضّربات الموجعة الواحدة تلو الأخرى عقاباً له على جرائمه وتنكيله، وحثّاً له على الخروج من وطنه السّليب، وعليه أن يفعل ذلك، فهذا الوطن ملك لابنه هادي ولأبناء الفلسطينيين لا لأبنائهم الغرباء، ابنه هادي وأبناء الفلسطينيين عليهم أن يكبروا هنا، وأن يسعدوا هنا، وأن يدفنوا هنا بعد أن يموتوا، أمّا الغرباء فلا مكان لهم في هذه

الأرض، ولذلك عليه أن يبذل النّفيس والغالي من عمره ونضاله وصحّته كي يهب لابنه هادي مستقبلاً محرّراً وعادلاً دون شبح شيطاني اسمه الاحتلال الصّهيوني.

في البداية لم تتحمّس الكتائب المسلحّة الفلسطينيّة لفكرة تجنيد رجل أصمّ شبه عاجز عن التّواصل على حدّ تقديرهم، ولكن عندما وضعوه في اختبارات متعدّدة وجدوه مثالاً للشّجاعة والإصرار والعمل والتّضحية والتّكتم، ولذلك عهدوا إليه المرّة تلو الأخرى بالمهمّات الصّعبة، وكان يقوم بها بكلّ سرّية وإخلاص وتفانٍ، ولا يهمس لبشر بأمرها خلا ابنه هادي الذي كان يهمس له في أذنه اليمنى وهو نائم بكلّ ما فعله لأجله، ويطبع قبلة مديدة على جبينه النّوراني، ويضمّه إلى صدره بكلّ عطف وفخر به، وينام قريراً سعيداً حالماً بفجر قريب.

غداً يكون عيد الأضحى المبارك، وعيده اليومي المتكرّر هو أن يرى وجه ابنه هادي باسماً سعيداً عفيّاً مشافىً من كلّ مرض أو همّ، وزوجته تحمله كباقة زهر، وتدور به على بيوت القرية، تبارك لهم بالعيد، وتطمئنّ على أحوالهم، وتحمل الحلوى إلى البيوت الأشدّ فقراً من بيوتهم، وتصلهم ببرها وحنانها وتعاطفها مع سائر أحوالهم، هو وزوجته لم يلبسا ملابس عيد جديدة منذ سنوات بسبب ضيق اليدّ لاسيما بعد أن زُرع هذا الجدار العازل الذي ابتلع المزيد من فرص العمل القليلة التي كان الفلسطينيون يحصّلونها بشقّ الأنفس من هنا وهناك أينما تيسّر لهم ذلك، ولكن هادي كان يزهو بالملابس الجديدة في كلّ عيد، ولو كلّفهم ذلك بيع قطعة من أثاث البيت، أو التّنازل عن أكل اللّحم لأيام طويلة،

فهذا هو هادي الغالي العزيز، وله أن يسعد، ولو كانت عيناه وعينا زوجته باكيتين حزينتين، فما العيد إن لم يسعد هادي بملابسه الجديدة؟!ويطير فيها في شوارع الحي ودروبه الصّغيرة.

في الأعياد السّابقة كان يرافقه مع أمّه إلى السّاحة الكبرى العامّة في القرية للاحتفال بالعيد مع أهل القرية، ولكن منذ أن فصل الجدار بينهم وبين السّاحة والكثير من أراضي قريتهم وبيوتها، بات يكتفي بأن يراقبه وهو يلعب على الأرجوحة الوحيدة الموجودة في الفناء الخلفيّ للبيت، ويقتسم المتعة بها مع أترابه الكُثر من أبناء الجيران؛متعتهم صغيرة، ولكن قلوبهم الصّغيرة الطّاهرة قادرة على صنع السّعادة من أصغر مسبّباتها، ولو كانت أرجوحة خشبيّة صغيرة مثبّتة على أغصان شجرة توت عجوز بحبال مهترئة.

أمّا سعادته فهي تتبع وتصبّ في قسمات وجه هادي وهو يبتسم على قدر ملء روحه وهو يلعب مع أترابه، ويستقبل العيد بغطرسة طاووسيّة وهو يتبختر بملابسه الجديدة الزّاهيّة البهيجة، يراقبه دون ملل من النّافذة الخلفيّة للبيت التي تُطلّ على مرجة الأرجوحة، ولولا وجوب أن يذهب لصلاة العصر جماعة في مسجد القرية لما كان يفارقه لحظة واحدة دون أن يملأ حواسه بحركاته وكلماته التي لا يشبع منها أبداً مهما ارتوى.

في المسجد لم يسمع صوت انفجار كبير، كما سمعه المصلّون جميعهم ؛فهو أصمّ، ولكنّه أوجس خيفة لم يألفها من قبل بشكل مفاجئ تزحف إلى نفسه بدبيب موجع ، وعرف من المصّلين الرّاكضين خارج المسجد باتّجاه الانفجار أنّ مكروهاً ما حلّ بالمكان، كان الجميع يركضون باتجاه

الـدّوي المزلـزل، وكان هـو يركـض معهـم فـي الاتّجـاه نفسـه، ولكـن باتّجـاه وحيـده هـادي، تمنّـى أن يصـل إليـه بأسـرع وقـت ممكـن ليضمّـه إلـى صـدره، وليشـمّ رائحتـه النّديـة دون توقّـف، ولكـن مـا شـاهده حـال وصولـه المـكان أعـدم أمنياتـه الثّكلـى دون رحمـة أو تمهّـل، كانـت الأرجوحـة قتيلـة علـى الأرض تغـرق فـي بحـر مـن الدّمـاء والأشـلاء المقطّعـة المختلطـة بالـدّم المتدفّـق منهـا زلاليّـاً رطبـاً حـارّاً، لـم يسـتطع أن يـرى وجـه هـادي بيـن الوجوه المحوقلـة بأسـى، والمسـتنجدة بالسّـماء مـن البطـش الصّهيونـيّ الـذي طـاب نفسـاً بـأن يقصـف أطفـالاً صغـاراً وهـم يلعبـون فـي صبيحـة العيـد، فحوّلهـم فـي طرفـة عيـن وسـهوة قلـب إلـى حطـام مـن أشـلاء ودمـاء.

لـم يطـل بحثـه عـن هـادي بيـن الأشـلاء المتناثـرة، فقـد وجـد رأسـه المتفحّـم متدحرجـاً قـرب الأرجوحـة القتيلـة، ولـم يميّـزه إلاّ مـن عينيـه الزّرقاويـن اللّتيـن ورثهمـا مـن جـدّه لأمّـه الحـاج عبـد اللّطيـف، فمـا كان فـي الحـيّ طفـل بعينيـن زرقاويـن سـواه، حضـن رأسـه إلـى صـدره، وزمّهـا، وذهـب بهـا نحـو البعيد؛ فهـادي يخـاف مـن الـدّم والمـوت والخـراب!

فـي تلـك اللّيلـة لـم يبـكِ، ولـم ينـعَ مـوت هـادي، فهـادي لا يمـوت وإن سُـجّي فـي القبـر بـرأس أو دون رأس، فمثلـه يجـب أن يظـلّ حيّـاً فـي نفـس والـده كـي يسـتمرّ فـي النّضـال حتـى يتحـرّر وطنـه، فرحيـل هـادي يعنـي أن لا معنـى للنّضـال أو الأرض أو الوطـن، فمـا حاجتـه بغـد موعـود دون ابتسـامة هـادي، ولذلـك يجـب أن يظـلّ هـادي علـى قيـد الحيـاة ليكـون عنـده مبـرّر ليسـتيقظ فـي كلّ صبـاح.

اللّيلـة عنـده مهمّـة عسـكريّة مُوكلـة إليـه مـن قبـل جماعتـه، وهـي تتمثّـل فـي

تهريب السّلاح والطّعام إلى القرية من خارج الجدار العازل الذي حرمهم حتى من لقمة الطّعام، وحاصرهم حتى في أقواتهم.

لن يؤجّل هذه المهمة، فهناك ألف هادي أو يزيد من أبناء القرية جائعين، ويجب أن يمدّهم بالطّعام، وهادي لا يقبل بأن يجوع الأطفال حداداً على اغتيال رأسه الجميل ذي العينين الزّرقاوين، ولذلك عليه أن يقوم بمهمته بكلّ التزام وإخلاص على الرّغم من احتجاج زملائه في الجماعة، وتصميمهم على أن يعفوه من هذه المهمة في هذه اللّيلة نظراً للظرّوف القاسية التي يمرّ بها نتيجة اغتيال وحيده الصّغير، ولكنّه يأبى إلاّ أن يأكل الصّغار في هذه اللّيلة بالتّحديد.

يقوم بمهمّته بإتقان، وتدخل الأسلحة والأطعمة إلى القرية بعد رحلة عناء لعبور التّخوم الفاصلة بسبب الجدار العازل، يغادر الرّفاق المكان بأحمالهم العزيزة بغية أن توزّعها على مستحقّيها في الصّباح، ويعود هو من جديد إلى الجدار متسلّلاً ليصفّي حسابه مع أولئك الأوغاد القتلة الذين اغتالوا ابنه هادي، لا يملك إلاّ قنبلتين ومدفعاً صغيراً محمولاً وجراباً يخصّره، فيه رأس هادي المتفحّم المتخثر الدّم على شعره الملبّد الأكثّ الذي يهبّه قوّة خرافيّة قادرة على أن تجعله يقلع هذا الجدار بأظافره الحاقدة، بسرعة خاطفة ينزع فتيل القنبلتين، ويحوّل المكان إلى جهنم حمراء تصطلي بأصوات المستنجدين والمحتضرين من الجنود الصّهاينة، تنهال الطلّقات عليه من عشرات الجهات، ويده على زناد مدفعه الرّشاش تهب الموت جزافاً لكلّ من يقترب منه من الجنود، ورأس هادي يترنّح في جرابه طرباً بشجاعة والده.

عندما يأتي الصّباح تكون المجزرة قد استوت على أجساد العشرات من القتلى، وعلى جثّة رجل بملابس فلسطينيّة وجراب يحمل رأساً صغيراً متفحّماً، عشرات المدرّعات الصّهيونيّة المعزّزة تطوّق المكان، وترحل الجثّة محاطة بالجنود والكلاب، فتودّعها زغاريد القرية الشّامتة بوجع الجنود، ورأس هادي المتفحّم يجهل المصيرالذي يُقاد إليه، ولكنّه لا يبالي بذلك طالما أنّه سيواجه مصير والده الحبيب.

في المساء تُوزّع الأطعمة المهرّبة على بيوت القرية جميعها، يأكل الأطفال حتى يشبعوا، ويشبع هادي في قبره عندما يأكل أطفال قريته، وفي كلّ مساء يأتي الطّعام المهرّب على ميعاده إلى أطفال القرية، ولا أحد يعرف كيف يصل الطّعام إلى بيوتهم، ولكنّهم يؤمنون بحكاية» الرّجل الأصمّ حامل الطّعام»، ويعرفون تماماً أنّ شبحاً شجاعاً لا يزال يسكن في جوار الجدار العازل، ويخوّف الجنود الحرس بجرابه ذي الرّأس المتفّحم المحروق، ويُدخل إلى القرية كلّ ما يشاء من مؤن، ولا أحد يجرؤ على منعه، وهو يصرخ بملء فيه قائلاً:» ها ها».

وادي الصّراخ

كان اسم المكان منذ سنين طويلة هو»وادي الرّمان»، ولكنّ منذ جاء الجدار العازل، وجرّف أراضي الوادي، وقلع أشجاره، وجعله بائداً خاوياً على عروشه أصبح أرضاً فاصلة بين طرفي البلدة التي أصبحت بلدتين صغيرتين بعد أن كانت بلدة واحدة ذات تاريخ طويل موغل في القدم، فغادرت البلابل الوادي بعد أن خسرت أعشاشها الوارفة في حقول

أشجار الرّمان، وحمل الوادي متفجّعاً محسّراً اسم»وادي الصّراخ» حين أصبح ملعباً للأصوات المتناجية عبر الجدار العازل حين حرُمت اللّقاء أو المشاهدة أو الحديث عن قرب.

الفلسطينيون أسموه «وادي الصّراخ» تخليداً لمعاناتهم اليوميّة في الصّراخ عبر أراضيه للحديث عن أيّ أمر في ضوء حرمانهم من لقاء أو تواصل، غدا الصّوت هو ألسنتهم ووجوههم وجلودهم وقلوبهم وأطرافهم وأزمانهم ومسافاتهم وآمالهم، ففي هذا الوادي تُسمع الزّغاريد والتّرانيم والأشواق والأخبار والنّكات والأدعيّة والآيات القرآنيّة بل وبعض المقطوعات الموسيقيّة يتبادلها الفلسطينيون الذين حرمهم الجدار من حقهم الإنسانيّ المتواضع في أن يوسدوا يداً إلى يداً، وقلباً إلى قلب، وعيناً إلى عين، وأن يديروا أيّ حديثٍ إنسانيٍ مهما كان محدوداً وقصيراً، ولذلك غدا الصّراخ عبر مسافة فاصلة طويلة آخر ما يملكون من حقّهم المهدور الفانيّ.

في الوادي تُسمع أمّاً تحدّث ابنتها التي فصل الجدار بينهما، وعجوزاً أكلتها سنوات الضّنى والمعاناة تدعو لابنها بالعودة إلى بيته، ويعبق الدّمع في عيني من يسمع صوت طفلة صغيرة تطلب من والدها أن يعيدها إلى بيتها بعد أن علقت خارج الجدار في رحلة زيارة لدار عمومتها، وتبكي له متوسلّة أن يأخذها معه، وأن لا يردّها خائبة وحيدة، فيغرق الأب في نشيج موصول متحشرج لا يملك قوة فيه ليصوغ لها وعداً جديداً يصبّرها به، وهو يعلم أنّ تحقيقه بعيد عسير، وفي أقصى الوادي في أقرب نقاطه من السّياج الشّائك يقف صالح ملويّاً متكئاً على عكازين خشبيين ينغرزان في تجويفي إبطيه، وهو يكابد نفسه كي تتصب واقفة، ولا

تسقط إعياءً بعد رحلة كادحة من بيته حتى الوصول إلى الجدار، وهي رحلة تقتضيه زمناً أكثر من ساعتين، وإن كانت تنقضي في عشر دقائق لماشٍ بحزم وقصد، ولكنّه بالكاد يستطيع أن يجرجر نفسه ليصل إلى هنا، ويدسّ نفسه بين جموع الصّارخين، ثم ينتبذ بصعوبة أقصى الوادي ليكون في أقرب نقطة ممكنة للصّراخ المسموع من هدى تلكم الملاك الحمائمي الأبيض الغارق ليل نهار في نقيع الموت هناك في مستشفى الهلال الأحمر في مخيم الدّهيشة حيث قابلها أوّل مرّة.

هدى تكبره بأحد عشر عاماً، ولكنّ جسدها النّحيل وعينيها الغائرتين في جمجمتها الصّغيرة، ويديها الصّغيرتين بقدر حفنة لوز أخضر، وابتسامتها الخجولة، وزيّها الأبيض ذا الياقة المرتفعة، تجعلها تبدو أصغر من عمرها بعقد كامل، بل تبدو أحياناً أصغر منه سناً ببضع سنين، ليست جميلة بمقاييس الجمال الباذخة التّسويقيّة التّسليعيّة، ولكنّها آسرة الجمال بمقاييس الجمال الرّوحي، حيث طيبتها البيضاء، وقلبها الورديّ، ونفسها المنسرحة دائماً في عون مبذول دائم لكلّ من يطلب عونها لاسيما من المرضى والجرحى الذين تعجّ بهم المستشفى، لذلك يراها صالح حمامة فلسطينيّة بيضاء خُلقت كي تهدل بالتّسبيح للرّب والوطن والإنسان ليل نهار.

كان يتمنّى لو أنّه قابلها هناك في جامعته في القدس القديمة حيث كان شبلاً جسوراً لا يعرف خوفاً أو ضعفاً أو جبناً، كان الأوّل في تخصّصه في الجامعة، والأوّل في برّ والديه العجوزين، والأوّل كذلك في صفوف المتظاهرين والمحتجّين على استبداد الصّهاينة، ولكّن حظّهما غير

الموفور جعلهما يلتقيان في أضعف حالاته، وأشدّها عوزاً للشّفقة والرّحمة والعون؛ طلقة جرثوميّة واحدة من بندقيّة مستدمر[1] صهيونيٍّ أصابته بالشّلل الدّائم، وبحشد من أمراض الدّم السّرطانيّة الدّائمة، أشهر طويلة قضاها هناك على سريره في المستشفى أعزل من كلّ شيء سوى قلبها الكبير، ورعايتها التي لا تعرف فتوراً أو انقضاء أو رحيلاً.

لم يكن في حاجة إلى أن يخبره أهله على جرعات من الحياء والحزن والعطف أنّه أصيب بالشّلل الدّائم، ولن يسير أبداً على قدميه؛ فهو يعرف هذه الحالة تماماً، ولطالما رآها في صفوف أصدقائه وأترابه وجيرانه من أبناء الشّعب الفلسطينيّ، كان يعرف أنّه سيظلّ عاجزاً إلى الأبد على الرّغم من دعاء أمه الموصول له بالشّفاء والصّحة؛ فطلقات العدو الصّهيونيّ لا تتصاع أبداً لأيّ دعاء أو استجداء أو استرحام، ولكنّه كان يعرف أنّ تلكم النّظرات التي تمطره بها الممرضة هدى ليست نظرات شفقة أو رحمة أو واجب كما كان يصرّ عمّه أبو حسين المرافق له في المستشفى ليل نهار على تسميتها، فقلبه الذي لم يكن قد قرع بعد قرعات العشق، يستطيع أن يدرك أنّ هناك ناراً مقدّسة مشتعلة في قلبها كما هي ذات أوار حارق في قلبه الصّغير العشرينيّ الذي لم يذق من السّعادة إلاّ النّزر منها في مخيمه الغارق في العوز والكدّ والاكتظاظ والأحلام التي لا تتحقّق.

عندما أخبر أهله بنيته بالزّواج منها، وقفوا مشدوهين، ثم عاجلوا قلبه بنخزة لئيمة على شكل تشكيك بأن تحبّه هذه الممرّضة العفيّة، وهو العاجز كلّياً حتى عن ضبط بوله فضلاً عن عجزه عن الحركة أو عن

١- هم مستدمرون لا مستعمرون؛ لأنّهم لا يعمّرون بل يهدمون.

أيّ سلوك طبيعيٍ فطريّ كمضاجعة جنسيّة مثلاً. ولكنّه أكّد لهم أنّ حبّهما أكبر من التّوصيفات الاجتماعيّة والمعطيات الوضعيّة، باختصارهو يعشقها، وهي تعشقه، ومن يعشق لا يعرف مستحيلاً أو مانعاً، ولذلك سيكون معها إلى الأبد، وهي قرّرت صراحة وبوضوح أن تكون معه حتى آخر لحظة من حياتها، مضحّية بحقها في الجنس أو الإنجاب انتصاراً لقلبها على مطالب جسدها وحياتها وعالمها.

رثى أهله لسذاجة ثقته في هذا العشق المأمول، وتركوا الأمر للوقت ليداويه بطريقته، وكثيراً ما تكون مداواته مؤلمة وكاوية، ولكنّهم تفاجأوا عندما علموا علم اليقين أنّ الممرضة هدى توافق على هذا الزّواج، وتعدّه الكفيل الأوحد لسعادتها، وباركوا هذا الزّواج بحملة تبرّعات من الأسرة لجمع مهر العروس، فجمعوا بصعوبة ألف دولار كي تكون أوّل عون لهما على الزّواج، وكاد الأمر يتمّ في القريب بعد أن غادر صالح المستشفى، وعاد إلى بيته لاستكمال تجهيز غرفته في بيت أمّه حيث سيكون عشّ الزّوجيّة المنتظر.

وجاء الجدار العازل في ليلة وضحاها ليحبسه في بيته، ويحبس حبيبته في مستشفاها بعد أن قطع الطّريق بينهما، وجعل الأرض أرضين، وصنع بينهما برزخاً من الحرمان والقطيعة، ليكون كلّ منهما حبيساً خلف جهة من الجدار، حاول دون جدوى أن يستقدم حبيبته إليه، أو أن يذهب إليها عبر تصاريح علاج يحصل عليها بمعونة الصّليب الأحمر، ولكنّه ما فتئ يخفق في ذلك المرّة تلو الأخرى، حتى أدرك أنّه حُرم من هدى إلى الأبد.

الطّريقة الوحيدة للتّواصل معها كانت عبر الصّراخ في واديه الحزين، تأتي هي كلّ صباح، ويجرّ نفسه منذ الفجر حتى يصل إليها في الموعد المضروب كي يقف مهدوماً على عكازيته بالقرب من الجدار الشّائك، ويصرخ بأعلى صوته: «هدى» أنا أحبّكِ...كِ...كِ».

فتردّ عليه بجرأة عاشقة لا تعرف خوفاً، ولا لومة لائم في عشقها: «وأنا أحبّك أكثر يا صالح».

فيسألها بلذّة من يطرح سؤاله الشّهي الحلو لأوّل مرّة: «هل تقبلين بالزّواج بي؟»

فتردّ عليه بفرحٍ شقيٍّ مرح: «نعم، أقبل بالزّواج بكَ».

يسعد صالح بموافقتها، وكأنّها يسمعها لأوّل مرّة في حياته، ويشدّ على الألف دولار التي يدفنها في عميق جيب بنطاله الكتّانيّ القديم، فلا تفارقه ليل نهار على أمل أن ينقدها في القريب المداهم لحبيبته مهراً لها، ويبتسم وهو يحلم بملاكه الأبيض وهي ترتدي ثوب الزّفاف الأبيض، وتجري نحوه دون جدار عازل جبّار لا يرحم قلب عاشقين، ويصرخ بعقيرة مشدودة كوتر قوس متحفّز للانطلاق: «هدى» أنا أحبّكِ...كِ...كِ»

الغروب لا يأتي سرّاً

يقول له صديقه معزّياً ومواسياً له: «لا تجزع يا صديقي، فعند كلّ إنسان أمر يخشاه. أتصدّق أنّ قائدنا في الجّيش يخاف من الدّم، ويفزع منه أشدّ الفزع على الرّغم من أنّه ترأس أكثر من عمليّة إبادة جماعيّة للفلسطينيين؟!»

يـردّ عليـه بخجـلٍ مـن حالتـه:» ولكنّنـي لا أخشـى الـدّم، بـل أسـتمتع بـه جـداً، وقمّـة فخـري أن أسـفحه مـن رقـاب الفلسـطينيين المخرّبيـن الذيـن يعيشـون فسـاداً فـي دولتنـا، ولكـن يـا للعـار، أنـا أخشـى غـروب الشّـمس، أصـاب بهلـع عظيـم عندمـا تغيـب الشّـمس، وتتركنـي وحيـداً فـي ظلمـة هـذا الكـون، فأتخيّـل أنّ كلّ الفضـاء حولـي يعـجّ بـالأرواح الشّـريرة التـي تطاردنـي بمصائدهـا النّاريّـة، وتحـاول أن تنهـش جسـدي بمعاولهـا المسـنّنة، وتسـعى لخطـف أرواح أبنائـي، لتجرّهـا إلـى الجحيـم، هـذا أمـر رهيـب، أكـره اللّيـل، وأخشـى لحظاتـه التـي أقضيهـا فـي صـراع مـع شـياطين وهميّـة لا يراهـا سـواي، ولذلـك تمعـن فـي تعذيبـي».

-«حالـة غريبـة بحق.عليـك زيـارة طبيـب نفسـي،لاستشـارته فـي هـذا الشّـأن» يقـول صديقـه معلّقـاً علـى حالتـه.

-«عرضـتُ نفسـي علـى أكثـر مـن طبيـب نفسـي، ولكـن دون فائـدة، فـلا أحـد منهـم يسـتطيع أن يسـاعدني، ولا الشّـمس تتشـبّث بمكانهـا فـي السّـماء، ولا الغـروب يأتـي سـرّاً، فـلا يوقـظ الأرواح الشّـيطانيّة التـي تتفلّـت مـن عوالمهـا تقصـد أن تطاردنـي بعذابهـا المسـوم».يجيب الجنـديّ الصّهيونـي،بهلـع ووجـع.

- « ولكـن لمـاذا؟ مـا سـبب هـذه الحالـة المرضيّـة النّـادرة» .يسـأل صديقـه مـن جديـد؟

-« لا أعـرف، بحـقّ أنـا لا أعـرف لهـا سـبباً، ولكنّنـي أتمنـى أن يأتـي الغـروب سـرّاً». يهتـف الجنـديّ بنبـرة رجـاءٍ وتمـنٍّ.

يصمـت الصّديـق، وتـزوغ عينـاه بعيـداً نحـو الأفـق، ونحـو ذلـك اليـوم الـذي يحـاول أن يبتلـع ذكـراه لحظـة بعـد لحظـة، فيخفـق فـي ذلـك، ويأتـي الغـروب

ليخـزه بذكـراه التـي تقـضّ مضجعـه، وتحوّلـه إلـى ملعـون سـيزيفيٍ لا يعـرف عذابـه نهايـة أو عقابـه توقّفـاً، يومهـا كانـت الشّـمس تـكاد تنزلـق خلـف الجـدار العـازل لتـردي المـكان فـي المزيـد مـن الظّلمـة والوحشـة، وكان هـو الحـارس الليلـيّ المسـؤول عـن حراسـة البّوابـة فـي المسـاء بعـد عنـاء يـوم طويـل مـن المراقبـة، وتفتيـش العابريـن، والتّفنّـن فـي تعذيبهـم وتعطيلهـم وتوقيفهـم وتأخيرهـم وإذلالهـم، فهـو متـورط معهـم فـي هـذه اللّعبـة الظّالمـة بقـدر تعذيبـه لهـم؛ إذ لا يمكـن أن تكـون مُعَذِبـاً دون أن تكـون مُعَذَبـاً!

وجـاءت تلـك المـرأة الفلسـطينيّة لتعبـر البوّابـة دخـولاً إلـى منطقـة سُـكناها فـي المدينـة المعزولـة التـي طوّقهـا الجـدار مـن كلّ مـكان كشـريط سـحريّ شـرير خانـق، كانـت تجـرّ ستّة أطفـال، وتحمـل فـي بطنهـا تـلاً لحميّـاً يمـور بجنيـن قـد أزف موعـد خروجـه إلـى الحيـاة، كانـت مرهقـة وباديـة التّعـب، وجـد لـذّة خاصـة مسـتفزّة فـي مشاكسـتها، وتعطيلهـا وتلويعهـا وأبناءهـا الصّغـار قبـل أن يسـمح لهـا ولهـم بالعبـور مـن البوّابـة، وعندمـا ردّته بشـموخ لا يُتوقّـع مـن قسـماتها الكسـيفة، ومـن شـحوبها البـادي، ومـن لهاثهـا الموصول، قـرّر أن يبالـغ فـي تمتّعـه بتعذيبهـا بـأن يمنعهـا مـن العبـور مـن البوّابـة إلـى أن يخيّـم ظـلام اللّيـل، ليتشـفّى ببؤسـها وهـي تفتـرش الأرض، وتتلحّـف بالسّـماء وبنوهـا علـى بـاب الجـدار حتـى الصّبـاح.

كان يتوقّـع أن ترضـخ لذلّـه، أو أن تتضـرّع لـه مـن أجـل العبـور، ولكنّهـا لـم تفعـل ذلـك، بـل تفلـت فـي وجهـه غيـر آبهـة بجبروتـه، وجمعـت أبناءهـا علـى عجـل، وأدارت ظهرهـا لتعـود بهـم مـن حيـث أتت. اشـتعلت نيـران الغضـب فـي صـدره الصّـدئ، وأطلـق حشـداً مـن رصاصـات نزقـة باتّجاههـا،

فخـرّق جسـدها وأجسـاد بنيهـا فـي لحظـات، تكوّمـوا جميعـاً علـى الأرض غارقيـن فـي بركـة دم حـار مـن جـداول أجسـادهم، وغربـت الشّـمس تمامـاً هروبـاً مـن هـذا المشـهد المـروّع، وبقيـت عينـا تلـك المـرأة تشـخصان نحـو السّـماء، وترفضـان أن تُغلقـا، وتتوعـدان بانتقـام، هكـذا فهـم نظراتهـا، وصمّـم علـى أنّهـا تحدّثـه وتتوعـدّه بالثـأر، وعندمـا عجـز الجنـود عـن إغـلاق عينيهـا انهـال عليهـا بوابـل جديـد مـن الرّصاصـات حتـى بـدا بطنهـا كمصفـاة معدنيّـة قديمـة، ولكنّهـا علـى الرّغـم مـن ذلـك ظلّـت شـاخصة العينيـن تتوعـدّه بانتقـام قريـب.

مـن يومهـا بـات غـروب الشّـمس يروّعـه؛ إذ يكشـف لـه عـن عينيهـا الشّـاخصتين، ويتوعّـده بالعـذاب، وزاد الطّيـن بلّـة حمـل زوجتـه بطفلهمـا الثّالـث، هـو يعـرف أنّ المـوت قريـب، وأنّ الانتقـام قـد أزف، لابـدّ أنّ الانتقـام سـيكون مـن جنـس العمـل، ولذلـك لا بـدّ أنّ الأرواح الشّـريرة سـتفتك ببنيـه وبزوجتـه الحامـل لتحـرق قلبـه كمـا أحـرق قلـب ذلـك الأب الفلسـطينيّ على زوجتـه وأولاده.

«ولكـن مـا ذنـب زوجتـي وأطفالـي الصّغـار بمـا اقترفـت يداي؟!» يسـأل الأرواح الشّـريرة التـي تطـارده، فتـرّد عليـه بسـؤال تنفخـه فـي وجهـه بلسـان لهيب: «ومـا ذنـب تلـك المـرأة الفلسـطينيّة وأولادهـا الصّغـار لتقتلهـم دون رحمـة؟!»

-« لا ...لا ... لـن يقتـل أحـد أيّـاً كان زوجتـي وأولاديّ الصّغـار، دعوهـم يعيشـون، دعوهـم يأكلـون ويشـربون ويكبـرون، هـم سـيموتون فـي يـوم مـا، ولكـن ليـس الآن؟» يرجـو الجنـديّ الأرواح متضرّعـاً.

تجلجل الأرواح بضحكات خشنة ، وتقول بحزم:» بل عليهم أن يموتوا الآن».

- « لا ...لن يكون ذلك أبداً، ابنتي الصّغيرة راحيل تخاف من الموت والقبور، أحبّها أكثر من كلّ البشر، هي أشدّ رقّة من نسمة صيف، لن يقتلها أيّ أحد، ويجب أن تعيش مديداً وأن تسعد كثيراً». يزمجر الجنّدي، ثم يغادر غرفته كالمجنون حاملاً مدفعه الرّشاش، ويهبط سلّم البيت سريعاً متوجّهاً إلى المطبخ حيث يجد زوجته الحامل وطفليه متحلّقين حول مائدة العشاء، يشيّع دهشتهم بلا مبالاة، ويشرع يخرّقهم برصاصات مدفعه مبتدئ بابنته راحيل التي تخاف الموت والقبور، ويحبّها أكثر من البشر أجمعين، وعينا المرأة الفلسطينيّة القتيلة الشّاخصة العينين تقدحان شرراً، وهو يصرخ بهستيريّة:»هؤلاء زوجتي وطفلي، أنا أحبّهم، لن يقتلهم أحد سواي، هيّا اغربي عن وجهي أيّتها المرأة الملعونة».

سلالة النّوْر

دم سلالته المباركة يتدفّق في أعماقه ووجدانه وشرايينه، فيدفع حلمه إلى أن يكبر من أجل أن يسافر إلى القاهرة ليستكمل علومه الإسلاميّة في الأزهر الشّريف ليفقّه نفسه، وينفع أمّة المسلمين، منذ أجيال طويلة رجال أسرته الواحد تلو الآخر يحملون راية الشّريعة الإسلاميّة، ويسمّون الشّيوخ في المدينة، أبوه وجدّه ورجال أسرته جابوا بقاع الوطن الفلسطيني، وحملوا لواء الدّين والإحسان والخير والبناء، وهذه البذرة الصّالحة تنمو في أعماقه منذ وُلد، فمنذ صغره هو مفطور على الصّلاة

والصّوم والعبادة والبرّ والإحسان، وقد حفظ القرآن الكريم كاملاً منذ طفولته، وكثيراً ما صلّى بالجماعة إماماً في صلاة الفجر، برامج حياته كافّة مكيّفة وفق هدف واحد، وهو الذّهاب إلى الأزهر لاستكمال علومه الإسلاميّة، حتى زهر خطيبته اختارها وفق هذا البرنامج، فقد كانت صالحة عابدة مثله، تحفظ الكثير من أجزاء القرآن، وتتوق مثله إلى دراسة العلوم الإسلاميّة في الأزهر الشّريف.

كان عليه أن يحزم نفسه وكتبه، ويسافر إلى القاهرة بصحبة خطيبته بعد أن يتزوّجها كي ينخرطا في دراسة العلوم الإسلاميّة بعد أن حصّل لهما قبولاً في الجامعة، ولكنّ الجدار العازل الذي وُلد من رحم شيطانيّ وقف حاجزاً أمامهما، ومنعهما من السّفر خارج مدينته القديمة، وحطّم أحلامهما، وغيّر مشاريع حياتهما إلى الأبد.

وعلى الرّغم من ذلك كان من الممكن أن يقبل بواقعه الجديد لو لم يسرق الجدار معظم أصدقائه، ويقتلهم الواحد تلو الآخر على تخومه وبوّاباته، عندها قرّر أن يطعم سدنة الجدار للنّار والموت، هدوءه الغامر أجاد أن يُخفي مخطّطه المزمع، وفي اللّحظة المناسبة كانت الضّربة القاسمة، اختارها أن تكون في ليلة زفافه على المرأة التي اختارها شريكة لحياة الضّنك المريرة، خرج منذ الظّهيرة إلى صلاة الظّهر، وبعد أن أدّاها بأناة وخشوع، خرج إلى مراده، كان يحمل في كيسه الصّغير مسدّساً ومجموعة من القنابل، ويستعيد في ذاكرته تفاصيل خطّته المرسومة للتّسلّل إلى المعهد الدّيني اليهوديّ الدّاخلي، والدّلوف إلى قاعة التّدريس الرّئيسيّة ليوسعهم موتاً، انتقاماً منهم لأصدقائه الذين قتلوهم، ولحلم دراسته الذي

أجهضوه في تبرعمه، ولأرضه التي قسمها الجدار دون رحمة أو وجه حق، ولخطيبته التي يعشقها، ولن يستطيع أن يصطحبها معه إلى الأزهر الشّريف كما وعدها مراراً وتكراراً.

كان أمر الدّخول إلى المعهد سهلاً بمساعدة ملامحه الخلاسيّة الشّقراء التي يملكها وراثة عن جدّة أبيه ذات الأصول التّركيّة التي تزوجها جدّه عند دراسته العلوم الإسلاميّة في القاهرة قبل عقود طويلة، وعاد بها إلى مدينته القديمة حيث عاشت وماتت ودُفنت.

بخطوات ناقرة بخفّة على الأرض كرذاذ على ماء وصل إلى القاعة الرئيسيّة، وبسرعة خاطفة شرع ينثر الموت على الجميع بقنابله وبمسدسه، لم يدركه الحرس برصاصهم إلاّ وكان قد أرسل الجميع إلى جحيم الموت، ثم استسلم إلى جنّته الخضراء الموعودة، وحلّق بأجنحة من نور نحو البعيد، وترك جثته لهم ليركلونها بأقدامهم، ويمثّلون بها، ويسجنوها أياماً في حافظة مبرّدة قبل أن يسمحوا بدفنها على عجل في جُنح اللّيل، وكأنّها فعل محظور البوح به.

لم يزفّ إلى عروسه، ولم تُزفّ إليه، وبقيت في ثوبها الأبيض تنتظره طويلاً دون أن تصدّق أنّه لن يبرّ بوعده لها، ولن يتزوّجها، بل ولن يعود إليها أبداً، فليس من عادته أن لا يبرّ بوعد قطعه على نفسه، ولكن يبدو أنّه لن يستطيع أن يبرّ بوعده لأوّل مرّة في حياته، كذلك لن يستطيع أن يعود إليها، لذلك عليها أن تذهب هي إليه، وإن كان هو من سلالة العلماء الأبرار، فهي من سلالة الشّهداء الطّاهرين، فليس هناك في أسرتها بيت لم يقدّم شهيداً؛ فهي ابنة شهيد، ووالدها كان ابن شهيد، وجدّها

ابـن شـهيد، بـل ابنهـا المنتظـر الـذي لـم تحـظَ بـه منـه لا بـدّ أنّـه سـيحلم بالاستشـهاد، فمـا عليهـا إلاّ أن تكـون شـهيدة أيضـاً؟

خلعـت ثوبهـا الأبيـض إلـى ميقـات، وعندمـا حـان الوقـت المنتظـر، اسـتحمّت، وتمشّـطت، وتعطّـرت، وتزيّنـت، وتحزّمـت بحـزام ناسـف، ويممـتْ نحـو الجـدار الفاصـل الـذي أخـذ منهـا كلّ مـن تحـبّ، أُمـرت بالوقـوف علـى عتبـة بوّابتـه، لكنّهـا لـم تفعـل، وفـي اللّحظـة المناسـبة، تحولّـت إلـى جمـرة نار تكـوي كلّ مـن حولهـا مـن جنـود صهاينـة، وتهـزأ مـن الجـدار الـذي انهـارت أجـزاء منـه مـن شـظايا حزامهـا النّاسـف، وحمـل علـى أكتافـه مكرهـاً طرحـة عرسـها ملوّحـة بالأفـق لروحهـا التـي تحجـل فـي دربهـا نحـو السّـماء لتلحـق بسـلالتها النّورانيّـة الطّاهـرة.

ما قاله الجدار

(١)
السّجان مسجون أيضاً

كان يبدو العمل له ممتعاً، ومسليّاً، فليس هناك متعة أكثر من أن يقف على بوّابة يراقب منها الخارج والدّاخل، ويمارس عبرها متعته السّاديّة في تعذيب النّاس والتّنكيل بهم، استمتع سنوات طويلة بهذه اللّعبة العمل؛ إذ كان يظنّ أنّه السّجان المعذّب للفلسطينيين، ولكن عندما أيقن أنّه لا فرق كبير بين أن يُسجن المرء خلف الجدار أو أمامه أو في بوّابته، انتحر بجرعة إضافيّة من المخدّرات.

(٢)
قبر الرمثاويّ لا يُضام

لا أحد يعرف على وجه الدّقة اسم الشّهيد الرّاقد في هذا القبر، ولكن الجميع يسمّونه قبر الرّمثاويّ، فهم يعرفون أنّ صاحبه جاء من مدينة الرّمثا في شمال الأردن ليجاهد إلى جانب الفلسطينيين، فقضى نحبه في هذه المنطقة، فُدفن في بستان البيت الذي كان يجوزه، ويدافع عن أهله ساعة استشهاده، القبر ظلّ محراب البيت، وعامود فخر أهله، بل سمّي البيت مع الوقت ببيت الرّمثاويّ، ولقّبت الأسرة نفسها بآل الرّمثاويّ.

عندما غُرز الجدار العازل في خاصرة الشّعب الفلسطينيّ بتر القبر عن البيت، فكان البيت في شرق الجدار، والقبر في غربه، حزن أهل

البيت أشدّ الحزن لحرمانهم من القبر، وحزن القبر لنفيه عن عائلته التي جاورها سنين طويلة، ولأنّ الرّمشاويّ لا يُضام، فقد حمل قبره، وانتقل به إلى جوار البيت في النّاحية الأخرى من الجدار، وفي الصّباح كان من جديد في بستان البيت ينتظر أهله ليسقوا زهوره النّابتة عليه، غير آبه برغبة الجدار الملعون!

(٣)

لا قصة حبّ للجدار العازل

جاء هذا الصّحفي الأمريكي ذو الأصول اليهوديّة من أقصى ولايات أمريكا بُعداً من أجل أن يقوم بالوظيفة التي أُسندت إليه بحكم شهرته الصّحفيّة وإنجازاته الإعلاميّة الجريئة، كان عليه أن يعاين تجربة الجدار الفاصل؛ ليكتب عنه المقالات والقصص الدّاعمة لكلّ من يرى وجوده في هذا المكان عدلاً وضرورة لحماية اليهود الغاصبين في أراضيهم المسلوبة من الفلسطينيين.

الحقيقة أنّه معني بالمبلغ المالي الكبير ذي الأصفار الكثيرة المُتفق عليه مقابل هذا العمل الدّعائي الإعلامي العاري من الحقيقة أو العدل، ومن قال إنّه يبالي بالحقيقة وبالعدل؟! المال كلّ همّه، ورصيده المتنامي في البنك جنّة حياته.

لكن مشكلته الكبرى تكمن في أنّ قلمه يكتب ما يشاء وعلى هواه دون الانصياع له، حاول أن يكتب قصّة حبّ واحدة في ظلّ هذا الجدار، فعجز عن ذلك، فكتب مئة قصة حزن بسبب هذا الجدار، ومزّق

أمـر الدّفـع (الشّـيك) ذا الأصفـار الكثيـرة، وشـرع يعيـش قصتـه الأولـى مـع الحقيقـة، فـكان فـي الصّـف الأوّل إلـى جانـب المتظاهريـن الفلسـطينيين ضـدّ هـذا الجـدار، وتصـدّرت صـوره وسـائل الإعـلام العالميّـة تحـت عنوان: »صحفيّ أمريكـيّ يقضـي نحبـه برصـاص قـوات الاحتـلال الصّهيونـيّ«.

(٤)
بوّابة واحدة لا تكفي

ليـس لهـذه البلـدة منفـذ علـى الدّنيـا سـوى هـذه البوّابـة اللّئيمـة فـي الجـدار العـازل، إن أُغلقـت، وكثيـراً مـا يحـدث ذلـك، فأهـل البلـدة يغـدون مجـرد سـجناء فـي سـجن كبيـر، جدرانـه الجـدار العـازل، وسـقفه السّـماء البعيـدة.

فـي كلّ صبـاح كان يقـود شـاحنته القديمـة بحملهـا مـن العمّال الفلسـطينيين نحـو البوّابـة ليواجهـوا كبـد سـاعات مـن الانتظـار والـذّل علـى أمـل أن يُسـمح لهـم بمغـادرة البوّابـة، لعلّهـم يعـودون إلـى عائلاتهـم بأقـوات يومهم التّعـس ، وهو يظـلّ قعيـد الأرض ينتظـر أن يسـمح لـه الجنـود بمغـادرة المـكان، ليعـود إليها من جديـد فـي اليـوم التّالـي.

بوّابـة واحـدة لا تكفـي لعبـور أولئـك العمّـال الفلسـطينيين كلّهـم، حتـى عندمـا قتـل مسـتدمر لعيـن عشـرين عامـلاً منهـم علـى البوّابـة بسـلاحه الرّشّـاش، فقـد ظلّـت البوّابـة الوحيـدة لا تكفـي، لذلـك فقـد ركـب شـاحنته، وأسـرع بهـا، وهوى بهـا علـى البوّابـة، فخلعهـا، وحطّـم جـزءاً مـن الجـدار، وسـحق بعـض الجنـود تحـت عجـلات شـاحنته، فوجـد الأرض أرحـب دون بوّابـة أو جـدار أو جنـود.

(٥)

لا قانون ضدّ الأقدام العائدة

مرض السّكري أكل القدم اليمنى لمؤّذن الجامع في الحارة القديمة، قيل له إنّ من الممكن أن تُصنع له قدمان من اللّدائن الطّبيّة الصّلبة، ولكن هاتفاً في المنام صاح فيه إنّ عليه أن يصنع له قدمين من السّندیانة الكبيرة في أرضه التي تقع الآن خلف الجدار العازل، حاول كثيراً أن يعبر البوّابة، وأن يصل إلى أرضه، ولكن دون جدوى، ففي كلّ مرة كان الجنود يردّونه رداً قبيحاً.

ظلّ يحلم بالقدم الخشبيّة من السّندیانة، وفي لحظة حلم سرقه الموت، قدمه اليتيمة قرّرت أن تحقّق الأمنية، انشلعت من جسده بلين ودعة، وسارت في الزّقاق القديمة التي تحفظها عن ظهر قدم، وعبرت بوّابة الجدار دون أن يوقفها أيّ جنديّ صهيوني، ويمّمت نحو السّندیانة المعمّرة في البستان الجبلي، وكبّرت: »الله أكبر«.

(٦)

الخيل الأصيلة تعود دائماً إلى أهلها

في المعتقل الصّهيوني مارسوا ضدّهم أعتى أنواع التّعذيب الجسديّ والنّفسي، ولم ينفكوا عنهم إلاّ عندما جعلوا منهم جواسيس لهم، فلا أحد يشكّ في أنّ صبية صغاراً قد يكونون جواسيس على أهلهم وجيرانهم وشعبهم.ولذلك أخرجوهم من المعتقل بهذا الشّفيع المخزي.

نقلوا إلى الجنود الصّهاينة الكثير من الأخبار الصّغيرة حول الثوّار

والمتظاهرين من الفلسطينيين، ثم نقلوا إليهم تفاصيل أكبر عمليّة مقاومة سيقوم بها الثّوار الفلسطينيون، وأمدّوهم بالمعلومات ليحاصروا عشرين بطلاً من أبطال الثّورة، ليبيدوهم في أرض العمليّة الفدائيّة قبل أن يقوموا بها، أخذوا مبلغاً كبيراً مقابل هذه الوشاية الدّسمة.

في الوقت المحدّد للعمليّة الفدائيّة كان الفندق الهدف مدجّجاً بالجنود الصّهاينة والآليّات في انتظار إلقاء القبض على الثّوار، ولم يطل بهم الانتظار، فقد جاءتهم استنجادات ملحّة وعاجلة من معسكرهم الذي أُبيد عن بكرة أبيه على أيدي الثّوار الذين خدعوهم عبر المعلومات المضلّلة من خيلهم الصّغيرة الأصيلة التي لا يمكن إلاّ أن تعود إلى أهلها.

(٧)
الموتى لا يرحلون

قال الضّابط الصّهيوني بسحنةٍ تمساحيّة ولؤم قنفذ أجرب: » لا أحد سيبقى في هذا المكان، الجميع عليه أن يرحل إلى ما خلف الجدار، الجميع بلا استثناء سيرحلون الآن إلاّ الموتى سكّان القبور «.

ضحك العجوز الفلسطيني من جهل الضّابط، وتمدّد على أرضه، وقال: «إذن هنا أموت» .وأسبل عينيه، وراح في سبات أبديّ.

اقترب الضّابط من العجوز ليحرّكه، لكنّه لم يقدر على ذلك؛ فقد تباعدت الأرض به، وغارت بالعجوز في باطن طبقاتها، وغيّبته عن العيون.

(٨)

طائر الفينيق حقيقة لا أسطورة

منذ صغره يحلم بأن يكون طائراً بجناحين يحلّقان نحو عنان السّماء، عندما كبر قليلاً بات يحلم بأن يصبح طيّاراً يجوب العالم بطيّارة زجاجيّة نفّاثة، ولكن عندما كسّروا له عظام يديه في المعتقل الصّهيونيّ كي لا يحمل من جديد العلم الفلسطينيّ في المظاهرات ضدّ الجدار العازل، وغدا عاجز اليدين قرّر أن يصبح طائر فينيق في النّار، ولا يحترق، يطير في السّماء، ولا يغادرها، ضمّ يديه العاجزتين بضعف على العلم الفلسطينيّ بعد أن وقف على أعلى مطلّ جبليّ في مدينته، وفرد كتفيه، وطار، وحلّق دون أن يهبط من جديد على الأرض، وخيّم العلم الفلسطينيّ على الأفق، وغاب الجدار العازل في ظلّه!

(٩)

المجانين ضدّ الجنون

« لا يفهم المجانين إلاّ المجانين مثلهم» .هذه هي جملته الوحيدة التي يفسّر بها قدرته السّحريّة على اجتياز الجدار العازل دون عبور بوّابته.

هو من مجانين القرية العتيقين الذين غدوا من آثارها ومعالمها وأوابدها، لا أحد يعرف متى بدأ جنونه أو لِمَ؟ ولكنّهم جميعاً في قريته يعدّونه من عقلاء المجانين إن جاز التّعبير؛ فهو لا ينطق إلاّ حقّاً، ولا يتنبّأ إلاّ بآتٍ.

عندما بُني الجدار العازل أمطره بوابل من السّخرية، وقال مواسياً الجميع: »لا تخافوا، هذا الجدار ليس أكثر من جنون، ولا أحد يخشى

مجنوناً، بل إنّ المجانين عينهم ضدّ الجنون»، ومنذ الوقت تغلّب على الجدار بسلطة سحرٍ لا يعرفه أحد، وظلّ حرّاً خارج نطاق سلطة الجدار، يخترقه متى شاء، ويعود إلى القرية عبره متى شاء حاملاً الحلوى والسّمك الطّازج من سواحل عكا ويافا وغزّة.

(١٠)

الموت يساوي بين الأشياء

حياة الإنسان هي الأثمن في هذا العالم، هذا ما تعلّمه من أبويه ومن مدرّسيه في كلية الطّب البشريّ، وما كان ليخمّن أنّ رحلة ميدانيّة واحدة خارج كلّيته سوف تعلّمه ما ينسف به ما تعلّمه كلّه طوال حياته؛ كانت الرّحلة هي مرافقة ميدانيّة مع طواقم عسكريّة صهيونيّة في إحدى جولاتها في أراضي الفلسطينيين خلف الجدار العازل، يومها وقع جريح فلسطينيٌ في أيدي الجنود بعد مواجهات دامية في باحة أحد المساجد القديمة، كان يتوقّع أن تُقدّم له الإسعافات الأوليّة من قبيل الإنسانيّة والأعراف الدّوليّة لمعاملة الأسرى، ولكنّه فوجئ بأستاذه الجامعيٍ في مادة التّشريح يقدّ جزءاً من بطنه بمشرطه وسط صراخ رعديّ من الجريح، في حين تذهب استغاثاته المحزنة أدراج الرّيح دون مجيب، ثم يشرع يعطيهم درساً حيّاً على تشريح إنسان حيٍ لا على جثة قديمة متعفّنة، يومها تقيّأ مبادئه جميعها على أرض الموت، وأيقن أنّ الغاية هي الأثمن في هذا الكون! وإخلاصاً لمبدئه الجديد الوليد فقد شرع يقتل كلّ جريح صهيونيٍ يقع بين يديه عندما عُيّن طبيباً في المستشفى

العسكرّي، ليبيع أعضاءه سرّاً لمن يدفع له المال الوفير، فلا قيمة عنده للحياة، والمال هو الغاية الكبرى في هذه الحياة. هذا ما تعلّمه في رحلته الميدانيّة الوحيدة إلى الجدار العازل.

(١١)

ثورة العصافير خارج التّاريخ

لأنّ البشر يؤرّخون الأعوام بأحداثهم الخاصّة المهمّة، فهم يجهلون تاريخ العصافير الذي يقول: » كانت العصافير تعيش بأمن في غابات وحقول وسهول فلسطين، إلى أن جاء العدوّ الصّهيوني، وقطع الأشجار، وجرّف الأراضي، وبنى جداراً عازلاً بين البشر، لا تعرف الطّيور سبباً لوجوده، ولا حقّاً له ليحرمها من أعشاشها وأوطانها.

قيل لها إنّ البشر سوف يردّون حقّها عليها، ولمّا طال بها الانتظار ، شنّت حرباً شعواء على الجدار، وبضربة واحدة من صدورها المجتمعة في جُمع قوّة ضاربة واحدة دكّت الجدار على الغاشمين الصّهاينة، واستردّت أرضها، وبنت أعشاشها من جديد على الأشجار النّامية على رفات الأشجار المقطوعة، وكتبت لها تاريخ نصر تحتفي فيه في كلّ عام.

(١٢)

على الجدار أن يرحل في النّهاية

حدّق الجدار العازل في حياته المعيشة، فوجد نفسه جداراً كريهاً، من باطنه المظلوم، ومن ظاهره الظّالم، فكّر ثم قرّر ثم دبّر، وفي الصّباح

استيقظ الفلسطينيون والصّهاينة فلم يجدوا الجدار، فقد رحل دون عودة رافضاً أن يظلّ شريكاً في هذه الجريمة النّكراء.

بعيداً عن الجدار

البوصلة والأظافر وأفول المطر

إن كان اسمك هاشماً، وكنتَ تملك بوصلة نحاسيّة قديمة مربوطة بجيبك بخيط صوف أزرق غليظ، فلا تفارقه، وكنتَ تجزمُ بأنّك ستموت في أشدّ أيام مربعانيّة[1] الشّتاء برودة، وكنتَ تدسّ يديك في غالب الأحيان في جيبي معطفك أوفي جيبي بنطالك كي لا يرى أحد أصابع يديك العاريتين من الأظافر، فأنتَ بلا شكّ هاشم النتّيفي[2].الكثيرون يعرفونه ويجهلونه في الوقت ذاته؛كان اسماً بلا وجه لسنوات طويلة، فطوال سنين سجنه الطّويلة في غياهب المعتقل الصّهيوني،كان يذكره أفراد عائلته دون انقطاع باسم البطل، وكان يقرن اسمه دائماً بجملة» فكّ الله أسره».

كان يتجسّد في مخيلتي حينها على شكل فارس أسطوريّ قامته ممتدة حتى السّماء، ويداه مغروستان في الأرض على شكل زيتونة ألفيّة، وعيناه مسكونتان بأسراب الحمام البريّ البغداديّ، كان -في نفسي-أكبر من أنّ أتمنّى أن ألقاه، وبقيت أرفض أن أصدّق أنّ الحاجة وطفة المتكوّمة في ثوب فلسطينيٍ أزرق قديم فيه آثار دارسة لقصب ذهبيٍ، والمتلفّعة بشالٍ

١- أيام المربعانيّة :هي عند العامّة الأيام الأربعون الأشدّ برودة في فصل الشّتاء.

٢- نسبة إلى قرية بيت نتّيف: تقع إلى الشّمال الغربيٍ من مدينة الخليل، وتبعد عنها ٢١ كم، وترتفع عن سطح البحر ٤٢٥م، وتقوم على قمّة جبل في المنطقة الغربية من جبال الخليل.تبلغ مساحة أراضيها ٤٤٥٨٧ دونماً. وقُدر عدد سكّانها عام ١٩٢٢ بحوالي (١١١٢) نسمة، وفي عام ١٩٤٥ بحوالي(٢١٥٠) نسمة، وفي عام ١٩٤٨بلغ عددهم (٢٤٩٩)نسمة.قامت المنظّمات الصّهيونيّة المسلّحة بهدم القرية، وتشريد أهلها البالغ عددهم عام ١٩٤٨ (٢٤٩٩) نسمة، وكان ذلك في٢١/١٠/ ١٩٤٨.ويبلغ مجموع اللاجئين من هذه القرية في عام ١٩٩٨ حوالي (١٨٩٩٥) نسمة.وقد أقام الصّهاينة على أرضها مستدمرة (نتّيف هلامدة) ١٩٤٩، ومستدمرة(افيعيزر) ١٩٥٨، ومستدمرة (روجيلت) ١٩٥٨، ومستدمرة (نفي مخائيل) ١٩٥٨.وتُعدّ القرية ذات موقع أثريّ يحتوي على خربة أم الرّوس وخربة أم الحاج والنّبي بولس واليرموك والعبد وجداريا والشّيخ غازي والتّبانة وغيرها.

كان أبيض في يوم قد نُسي متى كان هي أمّه التي ولدته، وحملته تسعة أشهر في أحشائها قبل أن يسرقه العدّو الصّهيوني من حضنها صبيّاً صغيراً، ويزّج به في غياهب المعتقلات بتهمة الشّروع في قتل مستدمر استولى على بيّاراته، وشرع يخلع أشجارها الواحدة تلو الأخرى بذنب أنّ زارعها فلسطيني!

كنتُ أضنّ على أيّ امرأة بشريّة فانية أن أمّه، وأرى أنّ أمّاً أسطوريّة هي من تليق به؛ فهذا البطل الغائب الذي سمعتُ الكثير من القصص عن شجاعته لا تليق به إلاّ أمّاً بعظمة الزّباء أو أمّ سيف بن ذي يزن أو أليسار أو شجرة الدّر، أمّا الحاجّة وطفة المقتضبة في نحو خمسين كيلو غرام وفي مئات خطوط الكبر في وجهها أنّى لها أن تلد كائناً أسطوريّاً مثل هاشم؟!

يوم قيل لنا إنّ هاشماً قد خرج أخيراً من المعتقل شعرت بحزن أنانيّ عميق، فبعد أن يخرج من المعتقل من سيكون بطليّ العائليّ المأسور الذي أفاخر به الصّديقات والمعارف؛ وعندما قيل لنا إنّه قد وصل إلى الأردن، وسوف تقيم له العائلة استقبالاً عائليّاً حاشداً في ديوانها الاجتماعيّ كدتُ أتقيّأ من شدّة الانفعال ثم أصابني صداع نصفيّ لساعاتٍ طويلة، ثم تورّطت في لعبة الانتظار مجهولة الأسباب.

وكان الحفل الأسريّ الحاشد بعد أيام قليلة تواترت عليها أخبار شتّى عن تفاصيل عودة هاشم، فعرفنا أنّه عاد وحيداً عبر معبر الجسر إلى الأردن، وانتحبنا طويلاً عندما عرفنا أنّ الحاجة وطفة الضّريرة عرفته من رائحته قبل أن يقول أيّ كلمة، وخجلنا من بخلنا عليه عندما عرفنا أنّه اشترى

بدنانيره القليلة التي يملكها من حطام الدّنيا مترين من قماش الحبر لأمه التي لطالما سمعها في طفولته تسبّ أخوته إن شاكسوها بقولها: »يا أولاد الكلب، هل اشتريتم لي ثوب الحبر كي تزعجونني هكذا؟! فخمّن أنّ غاية ما تحلم أمّه به هو أن تملك ثوب حبر مطرّزاً بالحرير الأحمر المونّس[1]، ولكنّ نقوده قصّرت دون أن يشتري لها «طبب»[2] الحرير المطلوبة.

كنتُ أعتقد أنّني سأرى فارساً ذهبيّاً يجرّ بحبله نمراً مقيّداً، خمّنت أنّ أرض ديوان العائلة ستميد بخطواته الضّاربة في الأرض التي ألفت أن تسخر من ثقل الأغلال الوقحة التي تتحاز إلى المعتدي ضدّ صاحب الأرض والحقّ، أغمضت عيني للحظة كي أفتحهما استعداداً لدخوله بصحبة رجالات العائلة، ثم فتحتهما، فلم أرَ الفارس الأسديّ العائد الذي لطالما تخيّلته، وإنّما رأيت رجلاً متكوّماً في معطف شتويّ قديمّ بلحية بيضاء وشعر عنزيّ مسدّل، يسير بثقةٍ مقصودة تكابرعرجاً بادياً في قدمه اليسرى، ويحرص على أن يدسّ يديه في جيبي معطفه، كدّتُ أخون لحظة استقباله، وأهرب من المكان، وطفقت أنتظر الفرصة المناسبة للهرب خارجاً، ولكنّ صوته هو من أخجلني من خيانتي المزمعة، فوحده صوته من جاء على قدر الأمنية؛ كان صوتاً فيه أرث كامل من الحكايا والنّضال والشّهداء والأوجاع والكفاح الذي لا يعرف مهادنة، صوته غابة من الرّوائح والكلمات الوجلات والتّنهّدات والصّرخات والإغفاءات

١- الحرير المونّس: أيّ يتكوّن من درجتين من اللّون ذاته.

٢- طبب الحرير: كرات الحرير.

واللّمسات.من يستطيع أن يهرب من صوت ابتلع معتقلاً بكلّ ما فيه من جنود غواشم وكلاب عادية وأغلال وسياط وآلات تعذيب؟! صوته مقبرة للأعداء، وترنيمة للبداية والنّهاية.

تكلّم طويلاً عن تجربته في المعتقل، لم يستخدم كلمة أنا أبداً، دائماً كان يقول نحن، كلماته نقلتنا إلى المعتقل، هناك عرّفنا بالأبطال اسماً اسماً، ووجهاً وجهاً، وقصة قصة، كنّا نسأله بفضول وشره، فيجيبنا عنهم بإسهاب وتفصيل، كنّا نكلّمه عن هنا، فيحدّثنا عن هناك، كنّا جميعاً غائبون، وهو وحده الحاضر.يومها صمّمتُ على أن أكون في أقرب مسافة من هذا الرّجل ذي الصّوت السّماويّ، ودفنت صورته المتخيّلة في أبعد نقطة خارج ذاكرتي؛فما حاجتي إلى الصّور الباذخة التّمنّي، وأمامي الحقيقة وافرة الصّدق؟!

لم أكن الوحيدة التي أرادت أن تكون في أقرب مسافاتها من هاشم، فهناك الكثير من أفراد العائلة الذين أرادوا أن يقتربوا من هذا الرّجل المثقل بالصّمت على الرّغم من موهبته الفطريّة في البوح الآسر المؤثّر، ولكنّني كنتُ الأكثر حظّاً في الحصول على النّصيب الأكبر في الاستماع إليه، وفي مرافقته في كثير من الدّعوات العائليّة والمحافل الشّعبيّة التي استضافته بفضول مجلوب مفتعل لتزيد من رصيدها الشّعبي، وتستعرض قائمة جمهورها غير العريض في غالب الأحيان، ثم نسيته تماماً بعد أن حقّقت هدفها الإعلامي منه.

وأخيراً خلا لي وجه هاشم ووقته واهتمامه، ولكنّه عندها كان وجهاً كسيفاً فيه خرائط حزن بائد لا تضاريس جبال شمّاء كما هي نفسه الأبيّة

العصّية على الكسر أو الصّهر أو الاستلاب، قدّر سريعاً بحسّه المرهف أنّ الجمع قد انفضّ من حوله، وخلّوا بينه وبين أحزانه، ليجرع منها ما شاء، فقد نفِدَ نصيبه من الاهتمام المجتلب المصنوع، أحد لم يسأله عن حاضره أو مستقبله، قليل من عرفوا عن وحدته وخواء جيبه من أيّ قرش، وشخصان أو ثلاثة هم من سألوه عن سرّ بوصلته النّحاسيّة أو أظافره المنزوعة من أصابعه.

أمّا أنا فتحوّلت أقداري من امرأة حالمة بفارسٍ أسطوريّ تفكّر في خبثٍ بأن تحصل من هاشم على مادة شيّقة لتقرير صحفيٍ يصلح لأن ينشر في عامود بارز في صحيفة يوميّة مشهورة إلى صديقة مخلصة تحرص على أن تستمع باهتمام موصول لبطل حقيقيٍ قرّر الجميع في خضمّ صخب حيواتهم أن يسرقوا فمه منه، ليعتقلوه من جديد في صمت خبيث.

حكايا هاشم كانت بوصلة لا تشير إلاّ إلى الوطن فلسطين وإلى العودة، كانت طُرقه كلّها تقود إلى دربٍ واحد، وهو درب العودة إلى بيت نتّيف، كان حريصاً في كلّ مكان يذهب إليه على أن يمدّ أصابعه العارية من الأظافر إلى جيبه ليخرج بوصلته النّحاسيّة القديمة، ويفتحها ليرقب إبرة المؤشّر تشير إلى اتّجاه فلسطين، وكأنّه في مسير مستعجل نحو العودة، كان يقول لي دائماً إنّه عائد في القريب إلى قريته، وهناك سيعيش في بيت العائلة في الحارة (التّحتى)[1]، وسيتزوّج من بنات عائلة أبو حلاوة[2]؛ لأنّهنّ الأشدّ جمالاً وخصوبة في نساء القرية، وسيعيش وأولاده العشرة

١- التّحتى: أيّ الجنوبيّة، إذ كانت قرية بيت نتّيف قبل هدمها تتكوّن من ثلاثة حارات رئيسيّة.
٢- أبو حلاوة: هي إحدى عائلات قرية بيت نتّيف.

الذين يريد أن ينجبهم من ريع الأرض، فهو فلاّح ابن فلاّح، ولا يتقن إلاّ أن يكون كذلك.وعندها يشتاط انفعالاً، فتغلب الحُمرة على خدّيه، وكأنّ الحياة ردّت إليه فجأة بعد رحيل وهو يرفل في أمنياته، كان يحرّر يديه من سجنهما الجيب، ويشرع يستنطقهما في حركاته وهو يتكلّم بإسهاب أخضر مورق بالسّعادة عن أدق التّفاصيل قرية بيت نتّيف، فيطوّف بي على عائلات حاراتها الثّلاثة، ويعدّد أسماء ساداتها، ويتتبّع أنسابها، ويؤكّد في كلّ مرّة أنّ كثيراً من أفخاذ عائلاتها كادت تنقرض في تصّديها الشّجاع لعصابات اليهود الواغلة في أراضيهم في عام ١٩٨٤، ثم يطوّف بي على قاعة السّحلة والمالحة وبير الصّفصاف وخربة أم الذّياب وخربة أم الرّوس وجسر الأربعين ومراح أبو جهنّم وسهل حمّادة[٣].

وعندما يحين وقت المساء يصمّم على أن يعود إلى بيته راجلاً بحجّة رغبته في بعض الرّياضة، وأنا أعلم علم اليقين أنّه لا يملك ثمن أجرة حافلة تنقله إلى بيته، فأصمت رحمة بحاجته الأبيّة على الشّكوى والاستجداء.

لم تطل صحبتي مع هاشم، فقد ألّبت خيبات الأمل الأمراض عليه، وكان سهلاً عليها أن تتحالف ضدّ نفسه المفطورة على الإباء حتى أمام الألم، كنتُ كلّما عرضتُ عليه أن أصحبه إلى الطّبيب، يؤجّل ذلك قائلاً:»سأذهب فيما إلى حكيم الوكالة[٤] ليكشف عليّ، لا تخافي، لن أموت أبداً في الصّيف، أنا لن أموت إلاّ في مربعانيّة الشّتاء، لأدفن في

٣- أسماء أماكن جغرافيّة في قرية بيت نتّيف.

٤- طبيب عيادة وكالة الغوث(الأونروا).

ليلة ماطرة كلّها زخّ من الرّب».

فأضحك عندها، ويضحك هو، ونتكلّم في أيّ موضوع إلاّ عن أظافر يديه المنزوعة بالكامل تعذيباً في المعتقل الصّهيوني التي أؤجّل السّؤال عنها إلى وقت آخر لا أعرف متى يكون، دون أن أعرف أنّ لا مزيد من الوقت أمامي، بل أمامه؛ فقد مات هاشم بهدوء وحيداً في بيته الغرفة في المخيّم بعد أن سافرت أمّه لتحقّق حلمها بأن تزور البيت الحرام قبل أن ترحل إلى العالم الآخر.

مات هاشم وفي كفّه بوصلته، وعلى شفتيه ابتسامة صافية كروحه المهر التي لا تبالي بأن تفارق جسده في ليلة صيفيّة لا ممطرة من ليالي المربعانيّة كما كان يتوقّع، مادامت طليقة تحلّق نحو وطنه فلسطين لتخلد هناك إلى الأبد.

خُرّافيّة أبو عرب[1]

« باعوها بعلبة سردين ووقّعوا»[2]، يتعالى صوته الموتور بالحشرجة والزّبد والضّحكات المتدفّقة بتواتر متقطّع محقون، وهو يعيد هذه الجملة كلّما أراد أن يبدأ حديثاً، أو أن ينهي آخر، أو أن يعلّق على أمرٍ ما، أو أن ينتقد موقفاً أيّاً كان حتى ولو كان انتقاداً لأزمة المرور الخانقة في وسط المدينة القديمة حيث يُعسكر منذ سنوات، ثم يطير بعيداً بملابسه المهلهلة،

١- كلمة «خُرّافيّة: تعني حكاية أو قصّة، وهي كلمة عاميّة مستعملة بكثرة في السّياق اليومي عند الفلسطينيين لاسيما عند كبار السّن منهم، وهي مشتقّة من كلمة خرافة، والفعل منها» خرّف» ، ويعني حكى وقال ورى ونقل.

٢-علب السّردين إشارة إلى علب سمك السّردين المعلّب التي كانت تُوزع على الفلسطينيين على شكل معونات دوليّة في خضم نكباتهم ومآسيهم وتشريدهم المتكرّر خارج وطنهم على أيدي الصّهاينة.

وقبعته الجيفاريّة الخضراء الدّاكنة، ومعطفه العسكريّ الشّتويّ المرّقع الذي لا يخلعه حتى في أشدّ أيام الصّيف حرّاً، وتطير خلفه جملته العتيدة التي لا تهترئ في فمه على الرّغم من تكراره لها، وتطلّ صورة جدّتي في ذاكرتي من ركن عزيز أثير، وهي تختم حكاياها المسائيّة والصّباحيّة إن ألححنا عليها بسرد إحداها في الظّهيرة:»وطار الطّير، وتتمسّوا بالخير» .

وعندما نلحّ عليها بأن تروي لنا من جديد قصة مجنون وسط المدينة القديمة صاحب الجملة الشّهيرة» باعوها بعلبة سردين ووقّعوا»، تقول لنا وهي تزّم شفتيها احتجاجاً مهزوماً على إجبارها على تكرار القصّة ذاتها لعشرات المرّات:» خرّافيّة أبو عرب كلّها عجب يا أولادي، اسمه أبو عرب، وكان - والله- زينة الشّباب في قريتنا في فلسطين قبل النّكسة، طوال عمره وهو فدائي، يحمل سلاحه، ويهيم في الجبال، ويقاتل الصّهاينة، كان رأسه مطلوباً دائماً للجيش الصّهيوني، ولكن أحداً لم يستطع يوماً أن يقبض عليه، كان أسرع حركة من البرق، ولكن أولاد الحرام من الخونة وشوا به، فقُبض عليه، وعُذّب طويلاً في المعتقل الصّهيوني، ولكنّه بقي على مواقفه الثّوريّة بكلّ ثبات وإصرار، ورفض أن يُدلي بأيّ معلومة قد تكشف عن هوية أيّ من إخوانه الثّوار، عندما خرج من السّجن نُفي إلى هنا، كان يعتقد بأنّه سيجد الرّحمة بين أهله من العرب، وهو من كان يسمّي نفسه بأبي عرب تبرّكاً وتفاؤلاً وإيماناً بالعرب أجمعين، ولكن منذ اللّحظة الأولى التي وطئت قدمه فيها هذه الأرض أُعتقل من جديد بتهمة أنّه مناضل فلسطيني، لبث في السّجن العربي طويلاً دون أن يعرف أحد مصيره، حتى نسيه النّاس، وعندما

خرج من السّجن كان قد خلع فيه مكرهاً ومغبوناً شبابه وذاكرته ونضاله، فنسي النّاس أجمعين إلاّ جريمة تشريد الفلسطينيين، وتواطؤ الخونة مع قوى الاحتلال والظّلام، ولم يعد ينطق إلاّ بجملته الوحيدة « باعوها بعلبة سردين ووقّعوا» التي يكرّرها تعليقاً على كلّ موقف في الحياة؛ فهي ترنيمة جرحه النّازف دون شفاء، ويلخّص بها فجيعة الشّعب الفلسطيني. يا أولادي، أبو عرب كان وسيظلّ زين الشّباب حتى ولو كان مجنوناً ضائعاً مشرداً في الشّوارع والزّقاق.

ولأنّني كنتُ أثق بحماس طفولي مطلق بمصداقيّة كلّ كلمة تقولها جدّتي الحاجة إلى بيت الله الحرام ثلاث مرّات، فقد كنتُ أُجلّ أبا عرب وأقدّره، بل أحبّه بصمت وتكتّمٍ محزون، وأنظر إليه على أنّه رمز من رموز الكفاح الفلسطيني، وكنتُ أصمّم على أن ألقي عليه تحيّة السّلام كلّما مررت به في طريقي ذهاباً وإياباً إلى المدرسة، مخاطراً بأن يطاردني بحجارته الطّائشة التي غالباً ما تُصيب هدفها شأني في ذلك شأن الأطفال الذين يزعجونه بملاحقتهم له، ولكنّه ما فعل ذلك معي قط؛ لأنّه على الرّغم من تحليقه خارج العقل إلاّ أنّه كان يملك نظرة سابرة تصبّ مباشرة في فراسته التي لا تخطئ حيال نية من أمامه تجاهه، ولذلك كان يكتفي بأن يصمت عندما ألقي عليه تحية السّلام، ثم يجنح إلى الابتعاد، وهو يكرّر جملته الشّهيرة، فتكرّرها الزّقاق الصّغيرة الآسنة بالصّدى الذي لا يفارقها.

وعندما داسته سيّارة مجهولة في ليلة صقيعيّة باردة، وتركته جثّة هامدة تهبّ دمها قطعاً متجمّدة على قارعة الطّريق، أبت جدّتي أن تكون هذه

هي نهاية خُرّافيّة هذا البطل المجهول، وصمّمتُ على أن تصنع له نهاية تليق بروحه الذّهبيّة الأبيّة؛ فأبو عرب لا يمكن أن ينتهي مثل سائر البشر مهزوماً مجهولاً وحيداً، لا يمكن أن تأكل الأرض جسده بشهيتها المتوحّشة النّهمة، بل هو محرّم على الأرض، وعلى الفناء، ولذلك أصبحت نهاية خُرّافيّته عندها تقول إنّ أبا عرب لم يمت، ولكنّه عاد متسلّلاً إلى فلسطين، وأُستشهد هناك في عملية فدائيّة بطوليّة، ودُفن في مكانٍ سرّيّ في أعالي جبال الشّمال الفلسطيني، وفي كلّ ليلة تخرج روحه، وتحمل السّلاح وتقاتل، وسيظلّ كذلك حتى يُبعث يوم القيامة حاملاً سلاحه وروحه، ومردّداً « الله أكبر، فلسطين حرّة عربيّة».

كفرنا جميعاً، أنا وأخوتي وأبناء عمومتي وأولاد الجيران وأترابنا في المدرسة، بنهاية أبي عرب الفاجعة في تلك اللّيلة الشّتويّة الباردة، وآمنّا بحكاية جدّتي؛فهي لا تكذب، وأبو عرب لابدّ أن يحظى بالميتة التي يستحقّها، وروحه لابدّ أنّها تركض الآن فرحة سعيدة في أحراش جبال فلسطين.

أمّا ظلّه فبقي يسعى هناك في الطّرقات المعبّدة بالحجارة الصّخريّة البيضاء، وفي الزّقاق الطّينية الزّلقة، أقسم على أنّني صادفته هناك مئات المرّات بل يزيد، كان يتبختر دون توقّف بخيلاء تليق بقامته المديدة ورقبته الزّاهية الانتصاب، وعندما ألقي عليه التّحية، يبتسم، ويدير ظهره، ويغذّ الخطى نحو البعيد، ويختفي في طرفة عين، فأتسمّر مكاني أقرأ الفاتحة على روحه، ثم أقصد مبتغاي دون أن ألتفت ورائي مهما حضّتني نفسي على ذلك؛فأبو عرب يكره النّظرات الفاحصة الفضوليّة.

كنتُ أعتقدُ أنّ أبا عرب سيموت بموت خُرّافيات جدّتي التي ماتت بعد أن صلّت العشاء ذات مساء، ودلّكت قدميها بزيت الزّيتون الفلسطينيّ الحار في الشّتاء ذاته الذي قضى أبو عرب نحبه فيه، ولكنّه لم يمت، بل وجدته في كلّ مكان ذهبتُ إليه، وما أكثر الأماكن التي ذهبت إليها، وما أجمل أنّ أبا عرب كطائر الفينيق، لا يموت، بل يُبعث حيّاً من رماده المرّة تلو الأخرى.

هناك في مخيّمات الفلسطينيين المهجّرين في الأردن وسوريا ولبنان وفلسطين قابلته وجهاً لوجه ألف مرّة ومرّة، أحياناً كان يصادفني بفعل بحثي عنه لأغطّي إعلاميّاً أحوال الفلسطينيين المهجّرين في تلك الأماكن بحكم وظيفتي في وكالة الأخبار العالميّة التي أعمل فيها منذ تخرّجت من معهد وكالة الغوث للمعلّمين في تخصّص اللّغة الإنجليزيّة، وكثيراً ما كان يقابلني بسبق إصرار وترصّد منه في جولاتي الفضوليّة الشّخصيّة الرّاجلة وحدي أو مع أصدقاء أو أقارب أو زملاء عمل لاسيما في زيارتي الدّورية المكّوكيّة التي كانت تستنفذ جُلّ راتبي ومدّخراتي أجور سفر بين تلك الدّول ذات التّخوم الحدوديّة المحمّلة بالانتظار والتّصاريح والأختام والتّواقيع خروجاً ودخولاً إليها.

ولكنّني ما كنتُ لأبالي بذلك الجُهد كلّه والغُرم والانتظار مادمتُ سأكون وجهاً لوجه مع أبي عرب، وفي كلّ مرّة كانت له خُرّافيّة تؤكّد أنّه خُلق لقدر واحد جبريّ، وهو أن يكون أبا عرب بحيواته النّضاليّة المتجدّد، ونهاياته المشرّفة، كان يجيد أن يلعب معي لعبة التّخفّي، ولكنّني كنتُ في كلّ مرة أكشفه، وأميّزه من بين الجميع، فيضحك ملء شدقيه

كما لم أره يضحك في حياته الأولى قبل أن يتحوّل إلى روح محلّقة في الخلود، ويقول:» باعوها بعلبة سردين ووقّعوا»، ثم يختفي حتى يظهر في القريب العاجل من جديد.

أبو عرب غدا جيشاً من الرّجال والنّساء والأطفال؛ تخفّى في أرحام الفلسطينيات اللّواتي يرضعن أولادهنّ الإباء، فوجدته، تخفّى في حجارة الأرض التي تصرخ يا فلسطيني، لكنّني كشفته، نام في مهود الأطفال الفلسطينيين فرأيته، وعندما كنتُ أسمع ترانيم الأمهات، كنتُ أسمع صوت قهقهات أبي عرب.مرّة كان الحاجة محفوظة شتية أم غالب التي حضنت شجرة الزّيتون، ورفضت أن تتخلّى عنها للجّرافة الصّهيونيّة لتقتلعها، وتقذفها بعيدة قتيلة كما فعلوا بابنها منذ أيام، وقفت وقالت لآلة الدّمار الصّهيونيّة أمام أنظار العالم وحيدة عجوزاً صامدة :»لا» فعرفت عندها أنّ روح أبي عرب قد تقمّصتها.

وعندما أُغتيل العمّال الفلسطينيون على الحواجز الصّهيونيّة بجريمة أنّهم يسعون في مناكب وطنهم بحثاً عن لقمة عيش كريمة لهم ولأهاليهم كان لهم جميعاً وجه ضاحك مزهوّ بالشّهادة، لم يعرف الصّهاينة لمن يكون هذا الوجه المتكرّر في الجماجم جميعها، ولكنّني كنتُ أعرف أنّه وجه أبي عرب.

تصميمي على أن أكون في أقرب نقاطي من أبي عرب جعلني أحظى بعروض إعلاميّة بالغة الأهميّة والنّدرة والاستثنائيّة، وهيّأ لي العمل في أكثر وكالات الإعلام الإخباريّة شهرة وعالميّة وتغطية، وغدا لي برنامج أسبوعي جماهيريّ استقطابي واستفزازيّ لكلّ من لا يملك أن يكون أبا

عـرب، وقـد أسـميت البرنامـج» خُرّافيّـة أبـو عـرب»، كلّ حلقـة كانـت حـول بطـل فلسـطينيٍ أو بطلـة فلسـطينيّة علـى ثغـور الصّمـود، كانـت الأسـماء والوجـوه فـي ظاهرهـا مختلفـة، ولكنّهـا فـي باطنهـا كانـت جميعـاً لأبـي عرب.

مـرّة كان اسـم أبـو عـرب دلال المغربـيٍ ومـرّة كان ينشـد أناشـيد إسـلاميّة بلغتـه غيـر العربيّـة، قبـل أن يقـوم بعمليـة استشـهاديّة، ويكـون اسـمه مـرّة آصف محمـد ومـرّة عمـر خـان شـريف اللّذيـن آمنـا بعدالـة القضيـة الفلسـطينيّة، وأصبـح اسـمهما أبـا عـرب، وإن لـم يكونـا مـن العـرب.

أجـاد أبـو عـرب أن يملـك الأسـماء جميعهـا و الوجـوه كلّهـا، وقصّـرتُ عـن أن أحيـط بـه علمـاً فـي كلّ مـكان وزمان وفعـل، ولكنّنـي عرفت أنّـه كان مرّة هاشـم النّجـار، ومـرّات أُخـر كان محمـد صـلاح حبيشـي، ومحمـد فرحـات، وحاتـم السّيسـي، وعمـاد عقـل، ورائـد زكارنـه، وعـلاء أبـو دهيـم، وريـم الرّياشـيٍ وفاطمـة النّجـار، وعجبـت مـن حصافتـه عندمـا كان اسـمه يحيـى عيّـاش، فابتكـر وسـائل التّفخيـخ والـدّارات الكهربائيّـة فـي العمليـات الاستشـهاديّة، ثـم ابتكـر تقنيـة التّفجيـر عـن بعـد بواسـطة الهاتـف النّقـال عندمـا كان محيـي الدّيـن الشّـريف، وهلّلـت كمـا هلّـل العالـم كلّـه لشـجاعته وهـو يتصـدّى وحـده لمعشـر الشّـرك الصّهيونـيٍ ويفجّـر نفسـه بهـم فـي رام اللـه عندمـا كان سـليمان زيـدان، أو فـي بيسـان عندمـا كان سـاهر التّمـام، أو فـي نتانيـا عندمـا كان اسـمه عبـد الباسـط عـودة، أو عندمـا أطلـق أوّل صـاروخ يُصنـع محلّيـاً فـي فلسـطين وهـو عندئـذ نضـال فرحـات، وكـم شـعرتُ بالقهـر وخيبـة الأمـل عندمـا أُغتيـل قبـل أن يكمـل صناعتـه لأوّل طائـرة تُصنـع فـي فلسـطين، وكـم بكيـتُ وبكـى العالـم معـي وهـو يسـمع وصيّتـه المسـجّلة بالفيديـو الموجّهـة لأمـه كـي لا

تحزن و كي تفخر به، وهو عندها الشّاب الفلسطينيّ الوسيم الذي يزخر بالحياة والعافية والصّحة محمد فرحات.

أضناني أبو عرب وأنا أجده في كلّ مكان، كان هناك في المقابر يشيّع الشّهداء، ويلقّنهم إجاباتهم لملائكة الحساب، وهو من كان يضرب طبول السّحور في رمضان، وكان آخر من يغادر حقول الحصاد في موسم الجني، وعلى الجدران كنتُ أميّز خطّه المسهود المزهو بعبارة: » فلسطين حرّة عربيّة»، وفي الصّفوف الأولى لصلاة الفجر كان يتّخذ مكانه، وهو من كان يقرع نواقيس الكناس في القدس القديمة، وهو من كان يؤذّن في آذان المواليد الجدد، وبفمه كان يلوك لهم لقم تمرهم الأولى.

حاولت كثيراً أن أحضن أبا عرب، ولو لمرّة واحدة في حياتي، لأقول له ما لم أستطع أن أقوله له وأنا صغير، كنتُ أريد أن أقول له :»أنا أحبّك كثيراً يا أبا عرب»، ولكنّه في كلّ مرة كان يهرب مني إلى قدره الذي يجبره على أن يكون سوّاحاً في سائر أرجاء الأرض، وأن أكون مطارداً له لا يعرف هدأة أو سكوناً؛وفي هذه المطاردة اكتشفتُ عاداته الكثيرة، وطبائعه المختلفة، وملكاته المتعدّدة، ولغاته المتنوّعة، وحيواته المتعدّدة، كان موجوداً في كلّ قلب يؤمن بعدالة القضية الفلسطينيّة أياً كان، وأينما كان، ومتى كان.

وفرحتُ إذ علمت أنّ أبا عرب لم يعش وحيداً، ولم يمت فرداً أبترَ كما كنتُ أعتقد، وكما حدّثتني جدّتي في خرّافيّته، بل كان هناك عشرات الألوف من النّساء اللّواتي تزوجهّن، وأسماؤهنّ جميعاً أم عرب، كذلك عنده جيش من البنات والبنين الذي يحملون اسم عرب، ويحملون

أسماء وهميّة مضلّلة كي لا يُفتضح أمرهم، ولذلك قمتُ أحدّق في الوجوه الصّغيرة في كلّ مكان، وأتساءل أيّهم قد يكون ابن أبي عرب؟ وحلاً لهذا السّؤال المجنون الذي لا يدرك عقل الحقيقة تعاملت مع الأطفال جميعهم على اعتبار أنّهم أبناء أبي عرب، ولم أنفك أحكي خرّافيّته لكلّ طفل ألقاه لكي يعرف في يوم من الأيام من تراه يكون، وأخالهُ سيفعل.

كان مشروعي القادم هو أن أسجلّ خُرّافيّات أبي عرب جميعها في كتاب قصصيّ جامع للأطفال كي يقرأوا ما عليهم أن يكونوا، ولكن تلك المهّمة الإعلاميّة العاجلة في قطاع غزّة جعلتني أترك ورقي وأقلامي ودواتي على طاولة مكتبي، وأطير إلى هناك أسرع من نعامة كي أنقل للعالم جرائم الصّهيونيّة في حق أبي عرب، أعني في حق الفلسطينيين العزّل، لم تكن مهمّتي أن أصوّر ما يحدث بشكل ميداني، ولكنّني صمّمت على ذلك لتكون عدسة آلة تصويري حجّتي عليهم أمام الله وأمام العالم كلّه، بعدستي أخذت آلاف الصّور لأبي عرب، ذُبح في يوم واحد آلاف المرات، ورقد على أسرّة المرض جميعها بالعلل كلّها والجراح والحروق، واستصرخ العالم، فكاد جوابهم له الصّدى، ولاشيء غير الصّدى، ولكنّه على الرّغم من ذلك ظلّ يُبعث حيّاً مرّة تلو الأخرى، وأخيراً كانت القذائف المدفعيّة التي كانت تستهدف قدمي اللّتين قفزتا بعيداً عني شهيدتين على الأرض، ووحدها آلة تصويري من بقيت مخلصة لي في هذه اللّحظة الغادرة، في البعيد رأيت أبا عرب يكرّ ويفرّ، وقريباً مني كانت قدماي ونزيف دم ضخم، وألم خارق ممزّق لا يخجل من أن يتحالف مع قذائف غاشمة ضدّي، وسيراً على أهمّ عادات أبي عرب الملغزة الخالدة ابتسمت هازئاً

من ألمي الطّاغي، وتساءلت ماذا تراه يفعل ابني عرب الآن؟ لقد جاء إلى الدّنيا قبل أيام قليلة، وسمعته ينطق في المهد، ويقول:» اصمد يا أبتاه»، ولكنّني لا أستطيع أن أصمد أكثر، في الأفق كانت تفُتح بوابة الزّمن، وتُطلّ منها جيوش العائدين من الفلسطينيين المهجّرين كأطواق زنابق نديّة، وأجداث الأرض تُفتح ليخرج أمواتها الفلسطينيون عائدين ليرقدوا رقدتهم السّرمديّة في وطنهم، في حين جلست جدّتي عن يميني تروي لي خُرّافية أبي عرب التي أعشقها لعلّها تلهيني عن ألمي المتضخّم كما كانت تُلهيني عن جوعي ومرضي في صغري، ومن شمالي شخصتُ أرقب قذيفة صهيونيّة أخرى تقصدني، بل تقصد أبا عرب، وكان اسمي واسمه عندئذ عماد غانم مصوّر قناة الأقصى الفلسطينيّة[1]، وعمّ الصّمت، وغابت الصّور جميعها، وغشينا أخيراً السّكون الأزليّ اللّذيذ.

*****

انتهت المجموعة القصصيّة

كُتبتْ في الشّتات وأنا مع أمّي الحبيبة نعيمة المشايخ

١- أسماء الأبطال والشّهداء الواردة في القصة هي أسماء حقيقيّة، وبطولاتهم المدرجة في القصّة هي بطولات حقيقيّة لا خياليّة.

د. سناء شعلان (بنت نعيمة)

أديبة وأكاديميّة وإعلاميّة أردنيّة من أصول فلسطينيّة، وكاتبة سيناريو، ومراسلة صحفيّة لبعض المجلات العربيّة، وناشطة في قضايا حقوق الإنسان والمرأة والطّفولة والعدالة الاجتماعيّة، تعمل أستاذة للأدب الحديث في الجامعة الأردنية/ الأردن، حاصلة على درجة الدّكتوراه في الأدب الحديث ونقده بدرجة امتياز، عضو في كثير من المحافل الأدبية والأكاديميّة والإعلاميّة والجهات البحثيّة والحقوقيّة المحليّة والعربيّة والعالميّة.

حاصلة على نحو ٦٣ جائزة دوليّة وعربيّة ومحليّة في حقول الرّواية والقصّة القصيرة وأدب الأطفال والبحث العلمي والمسرح، كما تمّ تمثيل الكثير من مسرحيّاتها على مسارح محليّة وعربيّة.

لها نحو ٧٠ مؤلفاً منشوراً بين كتاب نقديّ متخصّص ورواية ومجموعة قصصيّة وقصّة أطفال ونصّ مسرحي مع رصيد كبير من الأعمال المخطوطة التي لم تُنشر بعد، إلى جانب المئات من الدّراسات والمقالات والأبحاث المنشورة، فضلاً عن الكثير من الأعمدة الثّابتة في كثير من الصّحف والدّوريات المحليّة والعربيّة.

لها مشاركات واسعة في مؤتمرات محلّية وعربيّة وعالميّة في قضايا الأدب والنّقد وحقوق الإنسان والبيئة والعدالة الاجتماعيّة والتّراث العربي والحضارة الإنسانيّة والآداب المقارنة، إلى جانب عضويّتها في لجانها العلميّة والتّحكيميّة والإعلاميّة.

هي ممثّلة لكثير من المؤسّسات والجهات الثّقافيّة والحقوقيّة، كما أنّها

شـريكة فـي الكثيـر مـن المشـاريع العربيّـة والعالميّـة الثّقافيّـة والفكريّـة.
تُرجمـت أعمالهـا إلـى الكثيـر مـن اللّغـات، ونالـت الكثيـر مـن التّكريمـات والـدّروع والألقـاب الفخريّـة والتّمثيـلات الثقافيّـة والمجتمعيّـة والحقوقيّـة.
مشـروعها الإبداعـيّ حقـل للكثيـر مـن الدّراسـات النّقديّـة والبحثيّـة ورسـائل الدّكتـوراه والماجسـتير فـي الأردن والوطـن العربـيّ والعالـم.

من أعمالها المنشورة:

١- الرّوايات:

١- أعشقني.

٢- السّقوط في الشّمس.

٣ - أدركها النّسيان.

٢- روايات الفتيان:

١- أصدقاء ديمة.

٣- المجموعات القصصيّة:

١- قافلة العطش.

٢- تراتيل الماء.

٣- الجدار الزّجاجيّ

٤- حدث ذات جدار.

٥- الذي سرق نجمة.

٦- تقاسيم الفلسطينيّ.

٧- عام النّمل.

٨- رسالة إلى الإله.

٩- أرض الحكايا.

١٠- مقامات الاحتراق.

١١- ناسك الصومعة.

١٢- قافلة العطش.

١٣- الكابوس.

١٤- الهروب إلى آخر الدّنيا.

١٥- مذكّرات رضيعة.

١٦- أكاذيب النّساء.

١٧- الأعمال القصصيّة الكاملة، جزء١

١٨- الأعمال القصصيّة الكاملة، جزء٢

١٩- الأعمال القصصيّة الكاملة، جزء٣

٤- مجموعات قصصيّة مشتركة مع أدباء عرب وعالميين:

١- مجموعة قصصيّة مشتركة مع قاصّين أردنيين بعنوان «القصّة في الأردن: نصوص ودراسات».

٢- مجموعة قصصيّة مشتركة مع قاصّين عرب بعنوان «الضّياع في عيني رجل الجبل».

٣- مجموعة قصصيّة مشتركة مع قاصّين عرب بعنوان «في العشق».

٤- مجموعة قصصيّة مشتركة مع قاصّين أردنيين بعنوان «مختارات من القصّة الأردنيّة».

٥- مجموعة قصصية مشتركة مع قاصّين مصريين بعنوان «مجموعة نجوم القلم الحرّ في سماء الإبداع».

٥- مسرحيّات للكبار:

١- إعداد وسنيوغرافيا لمسرحيّة «صانعة» المقتبسة عن مسرحيّة (البيت النّظيف) للأمريكيّة سارة رول.

٢- دعوة على شرف اللّون الأحمر.

٣- «سيلفي» مع البحر.

٤- وجه واحد لاثنين ماطرين.

٥- محاكمة الاسم (×).

٦- السّلطان لا ينام.

٧- خُرّافيّة سعديّة أمّ الحظوظ.

٦- مسرحيّات للفتيان والفتيات:

١- اليوم يأتي العيد.

٢- رحلة مع المعلّمة فرحة.

٧- قصص أطفال:

١- قصّة للأطفال بعنوان «زرياب: معلّم الناس والمروءة».

٢- قصّة للأطفال بعنوان «هارون الرّشيد: الخليفة العابد المجاهد».

٣- قصّة للأطفال بعنوان «الخليل بن أحمد الفراهيديّ: أبو العروض والنّحو العربي».

٤- قصّة للأطفال بعنوان «ابن تيمية: شيخ الإسلام ومحيي السّنّة».

٥- قصّة للأطفال بعنوان «اللّيث بن سعد: الإمام المتصدّق».

٦- قصّة للأطفال بعنوان «العزّ بن عبد السّلام: سلطان العلماء وبائع الملوك».

٧- قصّة للأطفال بعنوان «عبّاس بن فرناس: حكيم الأندلس».

٨- قصّة للأطفال بعنوان «زرياب: معلّم النّاس والمروءة».

٩- قصّة للأطفال بعنوان «صاحب القلب الذّهبي».

١٠- مئات القصص المصورة للأطفال المبثوثة والمنشورة في مجلّات الأطفال المحليّة والعربيّة.

٨- المقالات والنّصوص النّثريّة:

١- أبي سيّد الكلمات.

٢- الذين لا ينامون.

٣- قالت النّساء.

٤- غصون وتخوم.

٥- الدّرب إليهم.

٦- الأعمال النّثريّة الكاملة.

٩ - لقاءات حواريّة:

١- الهدهد والخاتم: لقاءات مع مبدعين عراقيين، سلسلة حوارات إبداعيّة وفكريّة (١)

٢- العرّافة والجبل: لقاءات مع مبدعين عرب، سلسلة حوارات إبداعيّة وفكريّة (٢)

٣- لقاءات حواريّة: لقاءات مع مبدعين عالميين، سلسلة حوارات إبداعيّة وفكريّة (٣)

١٠ - كتب نقديّة متخصّصة:

١- الأسطورة في روايات نجيب محفوظ.

٢- السّرد الغرائبيّ والعجائبيّ في الرّواية والقصّة القصيرة في الأردن ١٩٧٠-٢٠٠٢م

٣- دور جلالة الملك في مكافحة الإرهاب: تفجيرات عمان في قصص بالشّراكة مع المؤلّف وائل الفاعوريّ.

٤- الدّواني والغواني: غصون في الأدب المعاصر ونقده.

٥- السّراب وأهزوجة النّور: دراسات نقديّة في الأدب المعاصر.

٦- ترنّم الصّوت وثورة الصّدى: دراسات نقديّة في إبداعات معاصرة.

٧- So Close, Much Farther: Studies in Criticism

١١- المشاركة في فصول نقديّة في كتب نقديّة محكّمة متخصّصة:

١- المشاركة بفصل بعنوان «السّرد الجميل لتأثيث عالم قبيح» في كتاب بعنوان «حنون مجيد في منجزه القصصي»، جمع وإعداد وتحرير د. سمير الخليل.

٢- مشاركة بفصل بعنوان «لقاء مع العلامة علي القاسمي: أبو المعاجم العربية الحديثة» في كتاب «الدّكتور علي القاسمي سيرة ومسيرة: مجموعة بحوث ودراسات مهداة إليه بمناسبة عيد ميلاده الخامس والسّبعين»، جمع وإعداد د. منتصر أمين عبد الرّحيم.

٣- المشاركة بفصل بعنوان «عبد الكريم غرايبة العملاق الذي ينير الدّرب للجميع» في كتاب «عبد الكريم غرايبة مؤرّخاً عربيّاً».

٤- المشاركة بفصل بعنوان «مساحة التّوتّر بين الانتظار والخيبة عند القاصّ العراقي فرج ياسين في مجموعته القصصيّة «واجهات برّاقة» في كتاب» في آفاق النّص القصصي: مقاربات في الهويّة والنّص والتّشكيل عند فرج ياسين».

٥- المشاركة بفصل بعنوان «البطل في قصص زياد أبو لبن» في كتاب «القصّة القصيرة في الوقت الرّاهن».

٦- المشاركة بفصل بعنوان «الذين لا يموتون» في كتاب «المبدع الرّاحل محيي الدّين زنكنه بأقلام أصدقائه».

٧- المشاركة بفصل بعنوان «الفنتازيا رداء للتّنوير في التّجربة القصصيّة عند محيي الدّين زنكنة» في كتاب نقديّ بعنوان «نظرات نقديّة في عالم محيي الدّين زنكنه الإبداعي».

٨- المشاركة بفصل بعنوان «شهادة إبداعيّة للأديبة الأردنيّة سناء شعلان» في كتاب «دراسات نقديّة عن الأدب الكرديّ».

١٢- الكتب المنهجيّة:

١- كتاب بعنوان «تعليم اللّغة العربيّة للنّاطقين بغيرها: المستوى الخامس»، كتاب مشترك مع مجموعة من المؤلّفين الأكاديميين.

من واجب الجدار الفاصل أن يخجل من نفسه، وأن يبكى
-ولو سراً- احتجاجاً على طغيانه واشمئزازاً من وجوده!

انتشارات عمار